

رواية

NOSTALGIA

نوستالجيا

أسامة الشاذلي



روايـــــة



تأليـــف

أســامــة الشــاذلـي



العنوان:

نوستالجيا (رواية)

تأليف:

أسامة الشاذلي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-4585-2
رقم الإيداع: 9757 / 2013
الطبعة الأولى: مايو 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

إهـــداء

إلـى شقيقاتـي..

أمـل.. أمـي الصغـرى

أمانـي.. ملهمتـي ومعلمتـي

إينـاس صديقتـي ورفيقـة دربـي

مقدمة لابد منها

أي تشابه بين أحداث وأشخاص الرواية هو محض مصادفة وخيال، وقد أثبتت التجربة أن المصادفة ابنة واقعها، والخيال زهر الحقيقة اليانع ....

أسامة الشاذلي



رأسي يؤلمني بشدة، ليس هناك أسوأ من أن أبدأ يومًا بصداع مثل هذا... أفضل عادة كل صباح أن أبقي عينيَّ مغلقتين ، أحاول تجاهل هذا الألم الذي يحتل الجزء الخلفي من رأسي وكأن يدًا من فولاذ تعتصرني .

أتنفس بعمق مستنشقًا رائحة الصباح، تلك الرائحة التي أدمنها والتي تحمل في طياتها آثار استيقاظ الأرض بعد سباتها الليلي بفعل أشعة الشمس وتبخر قطرات الندى المشبعة بزهور حديقتي المنزلية، مختلطة برائحة غرفتي، وذلك العبق الخاص لأرضيتها الخشبية التي لا أشم رائحتها إلا عند الاستيقاظ فقط ، وكأنها تلقيَ على صاحبها تحية الصباح ثم تصمت بقية اليوم .

ينثر العطش ملحه الخاص في جوفي، فيشتد إحساسي بجفاف الريق، ولكن جيوش الكسل تمنعني من مغادرة فراشي الدافئ أو حتى فتح عيني.

أمد يدي إلى منضدتي الأثيرة بجوار الفراش متحسسًا كوب الماء ولكني لا أجده، تأخذني سِنة من النوم للحظات قليلة قبل أن أقرر النهوض فرارًا من العطش ورغبة في الاستيقاظ.

نوستالجيا

أفتح عينيَّ في كسـل ليفاجئني ظلام دامـس، أعتدل في فزع متعجبًا من ذلـك الليل الحالك الذي يختلط برائحة الصبـاح، أتلفت بحثًا عن مصباح قراءتي الساكن بجوار الفراش ولكني أعجز حتى عن تحسسه، ينساب إليَّ الخوف كما لـم أشعر من قبل، وأنا لـم أشهد ظلامًا مثل هذا طيلة حياتي.

أقفـز مـن فراشـي فـي اتجـاه زر النور فـي الغرفـة، أصـل إليـه معتمدًا علـى ذاكرتـي المكانيـة، أفتحه فـلا يضيء، أغلقـه وأفتحه مـرة أخرى فلا يستجيب.

أسمع بائع الجرائد ينادي بعناوينه عند سور شرفتي الخلفية، ومارًّا يلقي بتحية الصباح على جالس في الشارع بصوت جهوري.

أمسك عينيَّ بكفي الذي أعجز عن رؤيته، أحاول تحريك أصابعي أمام عيني المفتوحة على أقصى اتساع لها، لكني حتى لا ألمح حركتها، أدرك دون أن أصدق أنني فقدت البصر، أصرخ بقوة قبل أن أسقط مغشيًّا عليَّ .

■■■

أجزم بأنه حلم سـخيف، بل كابوس، هذا الذي أفقد فيه البصر، أقرر أن أقاومه وأسـتيقظ مسـتعيدًا بصـري الغائب بين طيات النوم العميق، أسـتند علـى مرفقي كي أنهض وأغـادر الفراش فتؤلمني طبيعتـه الصلبة، أصطدم بحائط صلب، يؤلمني رأسـي ويديره إحساسي بأنني لـم أكن أحلم، فها أنا ذا ملقى على الأرض وليس الفراش على أثر فقداني الوعي.

تعتصر الصدمة قلبي، أتحسس موضع عينيَّ رغمًا عني وسؤال يتردد في خلفية عقلي، ماذا أوصلني إلى هذا؟.. كيف حدث هذا؟.. من السبب في هذا؟.. من أنا؟!

■■■

صحراء ثلجية، فارغة تمامًا احتلها اللون الأبيض وحده، ليزيدها فراغًا على فراغها، تقتل فيها البرودة القاسية أي محاولة للحياة، هكذا بدت ذاكرتي تمامًا، رغم محاولات الهدوء، واستجماع شتات النفس من أثر الصدمة الأولى.

أتوقف عن تفكير لايجدي، في صحبة يأس مرير، فقدت بصري وذاكرتي في يوم واحد، وحيد تمامًا وأعمى أيضًا، ترشدني دقات الساعة إلى أنها الحادية عشرة، وأستبعد شكوكًا حول ماهية التوقيت، ليلًا كان أم نهارًا، ولكن أنفي يذكرني بروائح الصباح؛ لأدرك أنها الحادية عشرة صباحًا فأقرر عدم الاستسلام واكتشاف الحقيقة.. حقيقة نفسي.

يدهشني أني أحفظ موقع خطواتي في البيت، بل وأماكن قطع الأثاث فأدرك أنه منزلي، أصبحت أملك منزلًا لا أعرف فيه نفسي ولا أملك روحي، يطمئنني هذا الإحساس قليلًا، وتجبرني الطبيعة على الذهاب إلى الحمام.

يعجبني دفء الحمام؛ فأقرر الاستلقاء في حوض «البانيو»، مستأنسًا بالماء الساخن؛ لعله يذيب بعض الثلج الكامن في ذاكرتي، أفتح الصنبور

الـذي صافح يـدي بمجرد اتجاهها إليـه، فيتبع خرير الماء صوتًا لاشـتعال أحد سخانات الغاز، ليضيء في داخلي قبسًا من نور.

■■■

نائـم علـى أرضيـة حمـام صغيـر، اكتسـت حوائطـه وأرضياتـه ببعض القيشـاني الأبيـض، مفترشًـا جلبـاب أبـي والماء السـاخن المتسـاقط من «الـدش»- بعيدًا عنـي- يدفئ المكان الذي يهبـه صوت شـعلة السـخان، صوتًا محببًا يسـاعدني على النوم، لا يقطعـه إلا صراخ أمي وطرقاتها على باب الحمام.

- نديم إصحى يا نديم حتتأخر على المدرسة.

أصرخ بدوري من فرط «الخضة» والغضب في آن واحد.

- حاضر يا أمي أخلص الدش واطلع.

وفـي ثوانٍ قليلة أخلع ملابسـي وأحتضن الماء سـاخنًا؛ لأغادر الحمام قبل أن تعود أمي للصراخ أو يطلب أبي استخدام الحمام.

■■■

إذن اسـمي نديم، نعم نادتني أمي في نفس الحمام يومًا ما باسـم نديم، يسـعدني تذكر الاسـم وشـعوري بالألفة معه وإحسـاس غير مبرر بالأمان لأننـي سـأتمكن مـن اسـتعادة بصري، كما اسـترجعت اسـمي منـذ قليل، أداعب حروف الاسم.

نديم ...

بصوت أعلى:

- نديم .....

أصرخ:

- نديييييييييييم

- اسم جميل

■■■

قد يكون جيدًا أني تذكرت اسمي، ولكن ما فائدة اسم بلا كيان، تحسست ما أظنه دولاب ملابسي، محاولًا اكتشافه؛ لتقع يدي على ما يستر جسدي، فأرتدي الأقرب إلى يدي دون تفكير.

تقتحمني رائحة عطر مميز، ما زال عالقًا بقميصي، غالبًا منذ ارتديته آخر مرة، تغمرني سعادة وجود هذا العطر، أسأله بصوت عالٍ:

- انت أكيد في القميص من ساعة ما كنت أعرف أنا مين ..... متعرفش أنت بقى أنا مين؟

تجيبني حوائط الغرفة بصمت أبلغ من الكلام؛ فأغادر الغرفة حزينًا وغاضبًا.

أستلقي على أول مقاعد الصالة محاولًا الاستمتاع بأكبر قدر ممكن من

رائحة العطر، أجمع القميص قدر استطاعتي من على جسدي، وأقربه من أنفي لأستنشق عبيره بهدوء، لا يأخذني منه إلا ضجيج أسمعه غالبًا عند الباب.

أجري في اتجاه الصوت، وأنا أصرخ بكل ما أوتيت من عزم:

- أنا هنا .... أنا نديم ... استنى أرجوك!

أتحسس الباب حتى أصل لمزلاجه؛ فأديره حتى ينفتح ... أخطو بسرعة إلى الخارج مواصلًا ندائي، في حماس لا ينطفئ:

- مين اللي هنا؟

فلا يجيبني إلا صمت آخر، وكأنه صار الإجابة لكل أسئلتي اليوم، أتجول بحرص أمام باب المنزل فأصطدم بباب آخر، أتحسسه في لهفة حتى تلمس يداي مستطيلًا بارزًا لا أدري كنهه، أتحسسه بتركيز أكبر، تقرأ أصابعي بعض الكلمات المحفورة عليه، ولكنها ترفض البوح لي بما قرأت في عجز مهين.

أطرق الباب بكل قوة مستخدمًا كلتا يديَّ وقدميَّ صارخًا بأعلى صوت لدي:

- ياللي هنا افتحوا أنا نديم ... أنا نديم.

وكعادة الأشياء التي كانت يومًا صديقة، ثم انقلبت عليَّ بعد أن احتلها الصمت هذا اليوم؛ ما من مجيب، تسقط يداي بفعل اليأس قبل التعب، أعيد تحسس الكلمات المحفورة على تلك اللوحة المعلقة على باب الجيران، متعلقًا بأمل أخير.

- ع ...ا....د....ل ....م....ه....د...ي ....م ...ح...ا...س...ب

أهتف بالاسم المكتوب قبل نهاية تحسسه:

عادل مهدي محاسب بالبنك المركزي.

■■■

الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، والمتبقي على الوقت الذي منحته أمي لي للعب مع أحمد صديقي وجاري نصف ساعة، أجري لأفتح الباب لأجد أحمد مازال منهمكًا مع والده في تثبيت تلك اللوحة الخشبية اللعينة على الباب.

أقترب من «عمو» عادل كما اعتدت أن أناديه وأقول:

- ممكن ياعمو أحمد يلعب معايا شوية؟

لا ينظر لي ويتابع تركيب اللوحة منهمكًا، ولكنه يجيب موجهًا الحديث إلى صغيره:

- روح يا حمادة العب أنت مع نديم، أنا خلاص قربت أخلص.

يعيد أحمد تعديل وضع «عويناته» ثم ينظر لي بغضب محبب إلى قلبي، أتركه وأجري في اتجاه الحديقة، حيث تركت الكرة منذ الرابعة، يصرخ في وجهي قائلًا:

- يعني يا نديم مش عارف تيجي بدري شوية، بدل ما انا متذنب مع بابا كده؟

أركل الكرة في اتجاهه وأقول مبتسمًا:

- أنا افتكرتك مبسوط باليافطة!

- عقبال يا أخويا يافطتكم!

أصرخ وأنا أحاول إيقاف الكرة التي ركلها بشدة:

- الأستاذ الدكتور عبدالرحمن جودت ... جامعة القاهرة.

■■■

- نديم عبد الرحمن جودت.

أردد اسمي الثلاثي في يأس؛ وأنا أغلق باب شقتي خلفي، بعد أن يئست من أن يجيبني مجيب، تتملكني خيبة أمل تطغى على إحساسي بالحزن لفقداني البصر، تمكنت منذ قليل من معرفة اسمي الثلاثي، ومازلت عاجزًا عن إدراك ذاتي، أعيد الارتماء على مقعدي الذي صار مفضلًا؛ مستنجدًا برائحة العطر التي أخذت تغيب هي الأخرى بفعل المجهود، أنتفض مرة أخرى جاريًا نحو دولابي؛ باحثًا عن تلك الزجاجة مصدر هذا العطر.

أفتش بعشوائية يد لا تعينها عين، يقع شيء ما على الأرض دلني صوت ارتطامه على وقوعه دون أن ينكسر، ويقع شيء آخر وينكسر، ترشدني رائحته على أنه الهدف المنشود.

أنحني محاولًا جمع أشلاء زجاجة عطر لا أراها ولا أتذكر شكلها،

تؤلمني وخزات الزجاج المكسور التي يكويها العطر المسكوب، الذي يدير رأسي؛ فيشغلني عن الألم بالذكرى والحنين.

■■■

أغادر سيارتي مدندنًا أغنيتي المفضلة لمحمد منير:

- تقابلني كتير وشوش، قلوب زي البيوت، طريق مبعرفهوش، يوماتي عليه بفوت ...

أصعد سلم البيت الصغير قفزًا، بعد أن اجتزت حديقته راقصًا، وأطرق الباب مكملًا الأغنية متناسيًا المفتاح الساخط في يدي؛ لعدم استعماله في فتح الباب.

- سنة ورا سنة، أضيع هناك هنا، في رحلتي أنا، الدمعة ليها صوت.

تفتح زوجتي الباب وعلى وجهها ابتسامة رائعة وهي تقول:

- في حد يضيّع يوم عيد ميلاده؟

أجتاز الباب محتضنًا إياها، وهي تغني بصوت حاولت أن يعلو على صوتي:

- هابي بيرث داي تو يو.

- ارسي يا خطوتي.

- هابي بيرث داي تو يو.

نوستالجيا

- اهدي يا دمعتي.

- سنة حلوة يا جميل.

- كله علينا يهون.

- سنة حلوة ياجميل.

فأحتضنها بكل قوتي فتستجيب في وداعة اعتادتها بين أحضاني:

- كله يهون ماعدا انتي طبعًا!

فتخرج يدها المخبوءة خلف ظهرها منذ دخلت المنزل وتناولني زجاجة عطر لصقت على قمتها ورقة تحمل كلمة واحدة:

- أحبك إلى الأبد.

■■■

أبكي دون دموع، مكتفيًا بقطرات العطر التي سالت على وجهي حين حاولت استنشاقها عن قرب، لا تحملني قدماي وأنا في وضع الارتكاز، أرتمي على الأرض مستندًا على الدولاب، وسؤال واحد يتردد في رأسي حتى كاد يصيبني بالصمم:

- زوجة وحبيبة .... أين ذهبت؟ كيف لا أتذكرها وتلفت انتباهي لها مجرد زجاجة من العطر؟

■■■

لا أعـرف بالتحديـد هل أنا نائم، أم أنني استيقظت، ولا يهمني التحقق مـن حالتي، بالعكس قد يكون النوم أفضل بالنسـبة لي، ففيه أرى ، وأحيانًا أتذكر.

صـوت عقـرب الثوانـي اللعين في سـاعة الحائـط يطاردنـي بـ«تكاته» المسـتفزة، أعد معه دون وعي متأملاً زمن الدقيقة الواحدة، يذهلني طولها الزمنـي حتى وصلـت إلى رقـم 60، يوجعني طول عمر الدقيقـة الواحدة، خاصة وأنا قد أضعت أعوامًا لا أتذكرها، ولا أتذكر كم تكون.

أتجـاوز ألم ذكـرى الزوجة المجهولة، وأنهض من مكان سـقطتي على الأرض، وأنا أستشعر ألمًا في مقدمة جبهتي، يبدو أن منضدة ما قد تكفلت به، أتحسس مكانه بيدي، فيلتقيني بروز في يسار الجبهة.

أتجـه للحمام، لأضع رأسـي أسـفل صنبور المـاء البـارد، متعمدًا غمر الكدمـة فـي الماء، حتى تتوقف عن إيلامي، فمـا لها من مكان، في ظل كل ما يحاصرني.

من المؤسف أن يحاول الجسد أن يشغلك، وأنت تبحث عن روحك.

تتآمـر معدتـي أيضًا مع تلك الكدمـة البارزة في جبهتي، فأشـعر بدبيب النمل يسـري في بطنـي، ومعدتي تتلوى في نداء شـهواني للطعام، يغيظني للغاية أن شـهواتي لم تفقد ذاكرتها هي الأخرى، وحواسـي كلها عدا عينيَّ تعمل بكامل طاقتها وكأن صاحبها شخص سليم، أو حتى يعرف نفسه.

نوستالجيا

أتحسس طريقي إلى المطبخ، معتمدًا على ذاكرة قدميَّ، وأفتح ثلاجتي لأتناول منها بعض العلب البلاستيكية لأبحث في داخلها عما يسد جوعي.

لا يهمني كثيرًا نوعية الطعام داخل العلب، وإن أزعجتني رائحته، وكأنني في قرارة عقلي قد قررت إيذاء معدتي بتناول طعام فاسد؛ انتقامًا من ذاكرتها الحية.

■■■

أفشل للمرة الرابعة في ربط حذائي، تحتل وجهي تلك التكشيرة المميزة التي تلتوي فيها الشفة السفلي لتنقلب على الشفة العليا وتغادر مكانها، تقترب والدتي وهي تحمل «صينية» مستديرة عليها كوب من اللبن و«ورك» فرخة، وكوب زبادي ونصف رغيف من الخبز مع حبة من الطماطم ومثلها من الخيار.

تشير إليَّ أن أنتظر ريثما تضع الإفطار لأبي وتعود لربط حذائي، أتأمل كوب البرتقال الذي يقبع أمامي في غيظ، تثير ملامسته فيَّ القشعريرة، برودته تزيد على برودة الجو في هذا التوقيت من يناير، تقترب أمي وتنحني لتربط حذائي صارخة بحزم:

- نديم اشرب البرتقان بسرعة!

أكتفي بهمهمة مجهولة، أعترض فيها وأبدي تذمري من ذلك الكوب المثلج، عديم الإحساس.

تكتفي أمي بتوبيخي قائلة :

- يعني مش كفاية وصلنا رابعة ابتدائي وكمان مش بنعرف نربط الجزمة، لأ كمان رجعنا نعمل على نفسنا تاني واحنا نايمين.

أصرخ معترضًا وكاذبًا في آنٍ واحد:

- مش أنا يا ماما دي أكيد إيمان.

تعلو ضحكة أمي وهي تربت على ظهري، يتحول ذلك الضوء الشاحب في صالة البيت إلى ضياء بفعل وجهها الذي أنار وهي تقول:

- إيمان أختك يا مفتري أكبر منك بـ 6 سنين، وبعدين دي بتبات في أوضة تانية أصلًا، حتعمل على سريرك إزاي؟

■■■

تنتابني رجفة، ورائحة عصير البرتقال المنبعث من داخل الثلاجة تزكم أنفي، وأردد في هدوء:

- إيمان عبد الرحمن جودت، أنا عندي أخت.

■■■

أستيقظ من غفوة أخرى، غير مبالٍ بتقلب الليل والنهار، أتذكر - ويا لسعادتي وأنا أنطق تلك الكلمة - أنني أجهدت نفسي في تذكر «إيمان»، ما أصابني بالحيرة أنني نجحت بالفعل في تذكر بعض التفاصيل التي تخص

«آمال»، وليست «إيمان»، لدي الآن ثلاث نساء مجهولات، زوجة لا أتذكر عنها شيئًا ولا حتى مجرد اسمها، أخت اسـمها «إيمان» وتكبرني بسنوات ست ولا شـيء آخر، وفيما أعتقد أخت أخرى اسمها «آمال» يحتل اسمها خيالات طفولة مهتزة تشبه نصًّا مكتوبًا أصابه بلل كوب مسكوب.

أعبث كما اعتدت مؤخرًا في أحد الأدراج، أستكشف في كل مرة واحدًا بعـد الآخر، تصطدم يداي هذه المـرة بصندوق صغير، أفتحه لأجد بداخله بعض السـجائر، وقدَّاحة صغيرة تحتل أحد أركانه، أبتسم وتتسع الابتسامة لسعادتي بتذكر البسمة لشفتَيَّ، أقول مخاطبًا نفسي :

أنا كنت بشـــرب سجايـر كمـان، طيب نسيتها إزاي دي واشمعنى دي، ما أنا منستش لا الأكل ولا الشرب.

أمنح شـفتيَّ سـيجارة كمكافأةٍ على الابتسامة، وأشعلها مستنشقًا نفسها الأول؛ في عشق راهبٍ يستنشق نسائم فجره الأولى.

يمـلأ الدخان صـدري، ويدير رأسـي قليـلًا، أنفثه موجهًا قبلـة للفضاء وتحتل ذاكرتي صورة أخرى غامضة من ماضٍ ينتمي إليَّ ولا أنتمي إليه.

■■■

أحكـم إغلاق سـترتي الصوفية وأنا اسـتعد لمغادرة غرفتـي القابعة في مبنـى من دوريـن، كالح اللون تم طـلاؤه باللونين الأصفـر والأزرق، فيما يشبه إحدى النقاط العسكرية في صحراء مصر الشرقية.

أستقبل الظلام و البرودة برجفة رغمًا عني، يقابلها في الجانب الآخر هذا الصباح المتثائب، والذي يحاول في جهد إزاحة ليل أشد منه برودة، أقفز إلى سيارة عسكرية ضخمة ، حوَّل ضجيج دوران محركها صمت الليل إلى فئران مذعورة، تركض من الخوف.

ألقي نظرة على السائق، هذا الجندي التعس بجواري، أتعجب من تلك «التلفيحة» المدنية التي يلفها حول رأسه لتحميه من البرد، ولكنني - تعاطفًا معه - لا أعلق عليها، فقط أشير له بالانطلاق دون أي كلمات، تندفع تيارات الهواء البارد من شباك السيارة مع حركتها، أتشبث برافعة الزجاج راجيًا إياها أن تستجيب، ولكنها تأبى بشمم جنديٍّ منتصر.

تواصل الرعشة الانتشار في أوصالي، أستعين بذاكرتي محاولًا الغوص فيها ونسيان البرد المقيت، وهذا الصمت الذي تحالف مع صوت المحرك وصرير الرياح.

تخشى الذكريات الدافئة النفاذ إلى عالمي البارد، فترتد تاركة إياي للوحدة والبرد.

لا أجد غير صندوق سجائري ألتقطه وأشعل سيجارتي الأولى، نافخًا الدخان من أنفي مستقبلًا، ولأول مرة هذا اليوم، شيئًا دافئًا، والجندي يستأذنني في إشعال سيجارته هو الآخر:

- تسمح أولع سيجارة يا سيادة النقيب نديم؟

■■■

نوستالجيا

أطفئ سيجارتي في تلك المطفأة القريبة على المنضدة، وأعود لغرفة نومي، أفتح دولابي لأتحسس ملابسي مرة أخرى، تصطدم يداي ببدلة صوفية، معلق على أكتافها بعض النجوم الذهبية، تخيفني فكرة أن تلك البدلة العسكرية، هي بدلتي، ترهبني فكرة كوني ضابطًا في الجيش، ألعن نفسي وذاكرتي، ويجتاحني شعور بالغربة أرجعه لإحساسي بعدم الانتماء.

أرتمي في سريري، مختبئًا خلف الغطاء، أنادي النوم فلا يستجيب، عندما يكسي عيونك الظلام، يصير النوم ضيفًا مترددًا، لا يرغب في زيارة عيون لا تعرف الضياء.

أخشى للمرة الأولى منذ استيقظت أن تداعبني ذاكرتي، أتعجب من خوفي من الحقيقة، أكتفي بترديد أغنية لا أعلم من يغنيها، ولا كيف تذكرتها.

- يا ليلة عودي تاني ، ياليلة كوني تاني، يا ليلة طهر وروح، تردي فينا الروح.

■■■

حجرة ضيقة صفراء اللون، يحتل أحد أركانها دولاب حديدي، ثارت عليه الملابس فتناثرت خارجة منه، في مشهد يثير غضب أي ربة منزل، أما الركن المواجه ، فيحتله سرير معدني فردي، تعلوه مرتبة إسفنجية، وملاءة حولها النوم إلى ما يشبه امرأة منهكة بعد ليلة طويلة في صحبة رجل فحل.

علـى الحائط صورة منزوعة من مجلـة لفنانة معروفة، وبجوارها صورة مرسـومة بخـط اليد في رسـم غير دقيق لفتـاة محجبة على وجهها ابتسـامة عريضة، أما شـباك تلك الغرفة فقد علقت عليه بدلة عسـكرية جديدة، يعلو أكتافهـا نجمـة واحدة، وأنا جالس فـي هدوء أدخن سـيجارتي بجوار أحد الزملاء، كلانا لا يرتدي سـوى «بشكير» متعدد الألوان، يشير توحده لكلينا علـى أنه «بشـكير صرفية» ، بعـد أن أنهينا لتونا دشًّـا باردًا اسـتعدادًا لحفل تخرج في الكلية الحربية.

أسأله في سعادة:

- مين جالك يا سلامة.

يجيـب أحمـد الذي أناديه بلقـب عائلته كما اعتدنا بيـن صفوف الدفعة الواحدة.

- أبويا ياجودت ومراته، أمي عيانة معرفتش تيجي.

أبتسم في سـعادة وأنا أغادر الفراش؛ لأرتدي «بدلة الكلية الزرقاء ذات الخط الأحمر»؛ استعدادًا لحضور العرض النهائي لحفل التخرج.

- أنا أبويا وإخواتي كلهم حاضرين، حنتخرج يا صاحبي، حنبقى ظباط.

وفـي أرض طابـور الكلية، أصرخ في سـعادة عقب نهايـة الحفل، قاذفًا بـ«كابي» لأعلى ممتثلًا لتقليد صنعه الخريجون منذ عشرات السنين، وأقفز خلفـه في الهواء سـعيدًا بتخرجي، سـعيدًا بكوني صرت حـرًّا كما تخيلت سـاعتها، مسـتعدًّا لاسـتقبال نظـرة الفخـر فـي عين والـدي، الـذي أصابه

مجموعي المنخفض في الثانوية العامة بالحزن، في عائلة اعتبرت مقياس النجاح مجموعًا في سنوات الدراسة.

■■■

أغرق في نوم عميق، أشعر بالراحة الآن وأنا نائم، لأني اكتشفت أن أستعيد بصري في الأحلام مرة أخرى، وجه واحد يملأ حلمي، شعر ثائر متمرد، تلونه درجات مختلفة من اللون البني.

جبهة ناصعة تشبه تمامًا المذبح المقدس في معابد الفراعنة، عينان واسعتان بنيتان، تملؤهما الحياة بهجة، على الرغم من كمِّ التساؤلات الذي يسكنهما، أنف يعيدني مرة أخرى للتاريخ الفرعوني، وفم مبتسم كقوس قزح.

وجه امرأة أهواها ...أشعر بذلك بل أكاد أجزم به، لكني أيضًا لا أتذكرها، أتساءل في الحلم من تكون، ليس وجه تلك الأخرى التي تذكرتها في البيت أمس، لكنه وجه يشيع الراحة في روحي، أرجوها في الحلم أن تبوح، فتتسع ابتسامتها أكثر فأكثر.

أرسم على وجهي تقطيبة مفتعلة، تقبلني كمن اعتاد أن يفعل هذا دائمًا، ثم ترحل، وتتركني أعصر رأسي لأتذكرها.

للمرة الأولى منذ أيقنت أنني فقدت ذاكرتي، لا أتذكر وجهًا يعاودني، على الرغم من كمِّ الراحة الذي وهبني إياها حضوره، أتوه في تلك الحلي

الفضية التي ارتدتها في يديها، خاصة ذلك الخاتم المميز ذا الفص الأسود الكبير على شكل جعران.

يجبرني العطش على الاستيقاظ، عطش حلًّ برحيلها، على الرغم من أن شذى قبلتها مازال يرسم على شفتيَّ شبح ابتسامة.

أغادر فراشي بين امتعاض وسعادة؛ لأتحسس تلك الساعة المعلقة على الحائط، حتى أمسك بعقرب الثواني الذي يطاردني صوته المملُّ، وأكسره في عنف أعلم أنه غير مبرر وترن في أذني عبارة واحدة : الوقت نسبي، احنا اللي بنعمله.

■■■



تستيقظ مها من نومها للمرة الرابعة على التوالي، تنظر إلى تلك الأرقام المضيئة على شاشة تليفونها المحمول والتي تشير إلى الرابعة صباحًا، تغادر فراشها في خفة، وتغادر غرفتها لتطمئن على ذلك الصغير النائم في الغرفة المجاورة.

تبتسم حين تصافحها ملامحه التي تشبه ملامحها كثيرًا، حتى إن صديقات أمها يقسمن أنه قد يكون مستنسخًا منها؛ لأنه صورة طبق الأصل منها في طفولتها.

تعيد وضع الغطاء عليه وتقبله في هدوء حتى لا تزعجه، ثم تغادر الغرفة على أطراف أصابعها، لتجلس على أريكتها المفضلة في صالة المنزل، تعيد تأمل المكان كغريب وجد نفسه في مكان لا يعرفه، تتثاءب وتلملم أطرافها لتحتضن نفسها من خوف مسيطر، تسأل نفسها في ألم شديد:

- أنا بعمل إيه هنا.

تغمض عينيها قليلًا ثم تضغط على رقم 2 في هاتفها المحمول لتتصل به، لا تعرف أين هو الآن، يزيد اختفاؤه من قلقها، وغضبها، يردد الهاتف من الجانب الآخر تلك الرسالة اللعينة المسجلة التي تشير إلى أن الهاتف مغلق.

نوستالجيا

تقـذف هاتفها في غضـب على الأريكة وتتمدد عليها ناظرة إلى سـقف الحجرة في انتظار النهار.

وحين تغادر الأريكة لتعانق المياه في «دشها» اليومي يلفت نظرها ذلك الرف الذي يحوي ملابسـها الداخلية في الدولاب، يدهشـها للمرة الأولى وجـود هـذا الكم من «الكيلوتـات» القطنية البيضاء، تصيبهـا الحيرة ولكن تحت الماء الساخن تحاول أن تمحي من عقلها أن تلك علامة أخرى على أنها رغم الزواج مازالت بكرًا تنتظر النضج.

■■■

تبتسم مها لذلك الرجل الذي يقترب منها معرّفًا نفسه:

– نديم جودت فاكراني؟

ترد فورًا متذكرة طرافة طريقة التعارف:

– طبعًا طبعًا.

يجلـس نديم على الأرض ليواجه جلسـتها علـى الأريكة في انتظار بدء أحد مؤتمرات منظمة الصحة لمكافحة التدخين ويقول:

– أنـا مبسـوط جدًّا إني شـفتك وعايز أعمل معاكي حـوار، ممكن رقم تليفونك علشان نبقى نتفق؟

تملـي عليـه رقم هاتفها بهـدوء ، فيضيفه إلـى هاتفه، ثم ينهض مسـلمًا عليها قبل أن يختفي في الزحام.

تـراه مـرة أخرى عنـد الانصراف، يشـير إليها مـن بعيد بالتحية، تبتسـم وتدخل سـيارتها بسـرعة هاربة من عاصفة يوم شتوي غاضب، وتنطلق في اتجاه منزلها.

يتأجـل الميعاد تلو الآخر لا يتقابلان، فقط يتبـادلان تليفونات بمواعيد لا تتم، حتى حدث اللقاء، ثم تكرر هذا، إلى أن وجدت نفسها تتحدث معه يوميًّا .

لا تعرف ماذا دهاها، ولكنه يؤكد لديها هذا الشعور بالغربة داخل بيتها، حيـث صـارت ترى فيه بيتًا دون أن ترى سـببًا واحدًا لهـذا، ودون حتى أي مبرر.

يدهشـها الآن اختفاؤه منذ أكثر من يوميـن، ولكنها لا تعرف طريقًا آخر إليـه إلا ذلك الهاتف، وصفحته على «فيس بـوك»، تفتح متصفح الإنترنت على تليفونها لتدخل إلى صفحته وتبعث إليه برسالتها السابعة بنفس النص «إنت فين؟».

■■■

يرتشـف نديم بعـض قطرات من كوب الشـاي الذي صنعـه بيديه، بعد اسـتيقاظه لمواجهـة العطـش، ثم يعيـد إضافة ملعقـة من السـكر تعمد في إذابتهـا أن يصنـع أكبر ضجيج ممكـن بالملعقة، يعرف مـن داخله أنه يكره الهـدوء، يفكر بطاقته القصوى في طريقة لاسـتعادة ذاكرته المفقودة، يصل مـع نهاية كوب الشـاي إلى قرار بمغـادرة المنزل، لن يذهـب بعيدًا، ولكن

نوستالجيا

لابـد مـن جار هنا أو هناك: صاحب محل أو بواب يعرفه، يستدل منه على أهله؛ ليعرف ماذا حدث.

يبحـث نديم في كل مكان عن مفتاح المنـزل، يعصر ذاكرته يرجوها أن تعيد إليه المفتاح كي يغادر المنزل دون جدوى، يفتح الباب منفعلا ويتركه مفتوحًا خلفه.

يهبط الدرج في تأني طفلٍ يتعلم السير، يشعر بضوء الشمس عبر الدفء الذي يملأ وجهه من أشعتها، يتخيلها للحظات سلاسل ذهبية تحيط وجهه، يتوقف على الرصيف أمام المنزل، يرهف السـمع محاولًا الاستدلال على أي صوت يقترب؛ حتى يسأله.

يثيـر إحباطـه مرور الوقـت، ومرور النـاس من حوله، دون أن يستطيع سـؤالهم عن أي شيء، وتبدأ قدماه في المطالبة بحقها الطبيعي في الراحة، فيزداد غضبه ويصرخ في غيظ:

– مين هنا يعرفني ؟

يشـعر لوهلـة أن الصوت توقف في الشـارع مـن حوله لحظيًّـا، قبل أن تواصـل عجلة ضجيج اليوم العادي دورانها، يدير ظهره للشـارع ويستعد للعودة للمنزل، وهو يحمل على أكتافه أطنانًا من الهم لفشل فكرته، وعدم قدرته على استكشاف أي شيء.

– في حاجة حضرتك؟

يستوقفه السؤال وذلك الصوت الأجش الذي ألقى السؤال بلهجة تنم عن أصول ريفية، وتلك الرائحة المميزة لبعض فلاحي الدلتا، يبتسم في سعادة غريق وجد طوق نجاته:

- حضرتك مين، إنت تعرفني؟

- لا، حضرتك ساكن فين؟

يشير نديم إلى اتجاه المنزل ويقول:

- أول شقة على الشمال.

- ياه، حضرتك سكنت في الشقة المهجورة دي، دي أصحابها سايبينها بقالهم مدة، ومنعرفش عنهم حاجة خالص، حضرتك بقى واخدها ملك ولا إيجار، لو عوزت حاجة خدامك حمدين البواب الجديد بتاع العمارة اللي جنبك، خد رقم محمولي ولو عوزت ..

يقاطعه نديم مخاطبًا نفسه بعد أن عاوده الإحباط:

- شقة مهجورة، وسايبينها بقالهم مدة؟

يترك البواب، ويعاود الحركة في اتجاه منزله، يهرع إليه البواب عندما يكتشف عجزه عن الإبصار محاولًا مساعدته، إلا أن نديم ينفر منه في غضب، فيتوقف عن المحاولة:

- لاحول ولا قوة إلا بالله، كفيف!

نوستالجيا

يجتاز نديم باب منزله ويغلقه خلفه في عنف، يرتمي على الأرض ساندًا ظهره على الباب في يأس، دون أن يبقى له إلا تلك الرائحة المميزة لذلك البواب القادم حديثًا إلى القاهرة، وكلمات أغنية يذيعها الراديو الصغير في يديه تقول :

جيت الدنيا ومابيديش لكن لأجلك انتي باعيش

أسهر أفكر فيكي ليالي شارد بيكي وخيالي

يبقى سؤالي هو سؤالي نفس الرد

جيت الدنيا ومابيديش

جيت ماعرفش لوين ياطريق

جيت الحزن معايا رفيق

خطوة تاخدني واتوه وياها

خطوة تعاند ماتعديش.

■■■

تغلق إيمان باب حجرتها خلفها، بعد أن تأكدت من مغادرة الوالد صلاة التراويح، تشير إلى نديم صاحب السنوات العشر بيديها ممسكة بألبوم غنائي جديد وعلى وجهها ابتسامة نصر.

يسـرع نديم ليختطف الألبوم، ويضعه في «الكاسيت»، ثم يبدأ في قراءة أسماء الأغاني ومؤلفيها وملحنيها، كما اعتاد منذ عشق سماع الأغاني على يـد أخته، يتأمـل صورة المطرب المرسـومة يدويًّا على الغـلاف بمصاحبة اللون السماوي.

تختطف إيمان منه غلاف الألبوم وهي تقول:

- اسمع الأول وبعدين ابقى اقرا براحتك.

يمـلأ صوت حميـد الشـاعري الدافـئ الغرفة وهـو يردد أغنيـة «جيت الدنيا»، يغمض نديم عينيه، ويسـرح تمامًا مع الكلمات، بينما ترقص إيمان بخفة على لحن الأغنية.

تقطـع حبل أفـكاره طرقات باب الغرفة، تسـرع إيمـان لتغلق الصوت، بينما أمهما تصرخ من الخارج

- بتسمعوا أغاني بدل ما تصلوا، ربنا مش حيقبل صيامكم.

يتبادلان ابتسامة متآمرة قبل أن يمد يده ليرفع الصوت صارخًا مع الأغنية:

جيت بنصيب وجدار مقسوم

عمري يعدي يوم ورا يوم

دنيا غريبة دنيا متاهة

دنيا بتاخد مابتعطيش

جيت الدنيا ومبيديش

■■■

يرتمي نديم على المقعد الأقرب، يغمض عينيه وكأنه يحاول تركيب هذا «البازل» المفكك لصورة إيمان أخته، يتذكر جيدًا تلك العينين الواسعتين السوداوين اللتين يخطهما حاجبان هلاليان كثيفان، ويتبعهما خدان كبيران ممتلئان يختفي بينهما على استحياء أنف صغير، وفم يشبه حبة الفراولة، تملؤه ملامح إيمان بالسعادة، يشعر براحة غريبة لمجرد تذكر شكل أخت لا يعرف كيف يجدها.

يتردد صوتها في أذنه فجأة وهي تقول:

- يا نديم... في اللعب الكسبان مستمر، في الحياة المستمر كسبان.

لا يعرف لماذا تذكر هذه العبارة تحديدًا وفي أي موقف قالته، لكنها أمدته ببعض الطاقة مع رنين صوت أخته المقرب من قلبه، ليغادر مقعده وهو يقول في شجاعة:

- وأنا مستمر لحد ما أوصل.

قبل أن تجذبه رائحة البواب التي تركها في يده، فيعاود استنشاقها مرة أخرى، متأففًا قبل أن يتجه للحمام للتخلص منها.

■■■

يطارد الصغير تلك الحشرات الملونة التي يطلق عليها رفاقه اسم «أبو مقص» يتحدى كلٌّ منهم الآخر في إمكانية جمع أكبر عدد من ألوان تلك الحشرة الطائرة، ويجلسون مساء أثناء لعب «الأولى» تحت تكعيبة عنب منزلهم الريفي لمعرفة حصاد اليوم.

يدرك رغم طفولته أن تربيته القاهرية لم تجعله يكسب هذا التحدي مرة واحـدة، وأنه حتى بعد أن تعود السـير دون حذاء إلا أن قدمه لا تسـعفه في الكثيـر من الأحيان، يغبـطِ كثيرًا محاولات ابن عمـه ورفيقه الدائم، خلال إجازتـه الصيفيـة التـي يقضيها في مسـقط رأس أبيـه، أن يعطيـه بعضًا مما يصطاد، ولكنه يأبى ذلك النصر المزيف.

تنهكه مطاردة «أبو مقص»، فيعود إلى ذلك المنزل الريفي ذي الدورين، المحاط بسور من الطوب الأحمر، والذي تحيط به من الداخل تكعيبة عنب عامـرة بمحصولهـا في ذلـك التوقيت من العـام، وكذلك حديقـة صغيرة، زرع فيهـا والده وعمه بعض أشـجار الـورد والجوافة والليمـون والبرتقال واليوسفي.

يقترب من تلك الغرفة الملحقة بالمنزل على مدخل درب ترابي صغير، ينتهي بـ«زريبة» البهائم الخاصة بهم، يشم بسعادة رائحة الخبز المتصاعدة من ذلك «الكانون» داخل غرفة الفرن.

يقتحـم الغرفـة مطالبًـا زوجـة عمه برغيـف، فتبتسـم أمه التـي تضرب العجين في سعادة، وتقذف إليه برغيف ساخن، يحتضنه بيديه الصغيرتين، ويلفه سـريعًا ليناسـب حجم فمه، والفتاة التي تسـاعد والدته وزوجة عمه تحاول مداعبته.

يسألها في فضول طفولي بعد أن جذبته رائحتها.

– هي دي ريحة إيه يا نعمة؟

تجيبه نعمة ضاحكة:

- ريحة الخبيز يا سي نديم.

يقضم رغيفه وهو يبتسم ثم يشير إليها قائلًا:

- لا ريحتك انتي.

- ريحة أقراص الجلة اللي بنولع بيها الكانون يا اخويا.

يصرخ بعد انتهاء إجابتها.

- جلة يععععععععععع.

ثم يجذبه «أبو مقص» ذهبي اللون خلف شباك الفرن، فيترك بقية الرغيف ويجري محاولًا اللحاق به.

■■■

تدرك مها منذ طفولتها أنها في رحلة بحث مستمرة؛ لأن وحدتها الجبرية والتي لم تخترها، اضطرتها للبحث عن شريك لحياتها، طفلة وحيدة في وجود الأب والأم وانشغالهما الدائم عنها، جعل شريكها الكتاب، وهو ما أبعد عنها - في توقيت ما - رفقاء الطفولة، الذين رأوا فيها طفلة مختلفة، تحب القراءة أكثر من لعب «الاستغماية».

وجدت مها في الكتاب ذلك السند، ذلك البيت الذي يهبها كل ما تفتقده، انتقلت بين صفحات الكتب المختلفة وتعلقت بها، كما يتعلق الطفل في ملابس والده، أو يصعد على كتفيه ليشاهد العالم ، ليعرفه أكثر،

وليكتسب خبراته، ولتنتقل إليه؛ كما اكتسب منه جيناته، لهذا اكتسبت مها جينات من الكتب، لم تكتسبها من أبويها.

انتقلت وحدتها بعد ذلك في مرحلة شبابها، إلى وحدة واغتراب، حين اضطرت للسفر مع والدتها لإحدى دول أوروبا الغربية، فزادت رحلة البحث اتساعًا.

لم تنس أبدًا أنها كانت تغادر المنزل في اتجاه مدرستها فجرًا، تلتقي في طريقها بائع الجرائد وبائعة الخضراوات، وغيرهما من ضيوف الصباح الدائمين في طريقها، والذين كانت تلقي عليهم تحية الصباح مبتسمة وسعيدة بيوم جديد، ولم تلق منهم سوى عبوس، يطفئ الابتسامة من على وجهها، وبعد مرور الوقت أنهت محاولة إلقاء التحية وزاد الطريق ظلامًا على ظلامه.

وحينما قررت العودة رغمًا عن كل الظروف، كان زواجها عبارة عن رحلة بحث جديدة، عن شريك آخر يملأ ذلك الفراغ في روحها.

وبعد 10 سنوات من تلك المشاركة قررت مها الانفصال، والذهاب بعيدًا، حين اكتشفت أنها لم تكتسب شريكًا، بل فقدت روحها.

تذكرت مها كل ما مضى في عجالة، وهي تنهي ارتداء ملابسها؛ استعدادًا لمغادرة المنزل بحثًا عن نديم، بحثًا عن مجهول لم تعرفه، لكنها أدركت منذ اللحظة الأولى أنه مختلف، رأت في عينيه ذلك الشريك الذي تعرفه روحها، أدركت منذ لمسة يده أن ذلك هو البيت، هو السكن، أو كما حدثها هو يومًا عن تلك الأسطورة الإغريقية القديمة!

وعندما أغلقت الباب خلفها كانت مها قد قررت ألا تعود دون أن تجده.

■■■

أشارت مها إلى النادل، بعد أن احتلت مكانها في أعلى نقطة، في ذلك المقهى الذي يقع بين أحضان التاريخ، حيث شكلت بيوت القاهرة الفاطمية جدرانه واحتل هو ساحتها، خلف الجامع الأزهر، كانت قد غادرت لتوها الحي الشرقي في مدينة أكتوبر حيث أخبرها يومًا عنوانه، أخبرها حارس العمارة أن نديمًا لم يعد منذ عدة أيام، وفشلت في الحصول على أية معلومات أخرى عنه، طلبت قهوتها وهي تسأل نفسها سؤالًا واحدًا: لماذا قادتها قدماها إلى هنا؟

ربما لأنه أخبرها يومًا أن توقيع روايته الثانية كان في هذا المقهى، وربما لأنهما اتفقا، فيما اتفقا، على عشق القاهرة الفاطمية، لم تعرف الإجابة، فقط انتظرت حتى انتهى النادل من وضع القهوة وسألته:

– فيه كاتب عمل توقيع روايته هنا السنة اللي فاتت تقريبًا، اسمه نديم جودت ، أنت تعرفه؟

اكتفى النادل بهز كتفيه بلا مبالاة مشيرًا إلى عدم المعرفة، قبل أن يغادرها تاركًا إياها في صحبة رائحة القهوة.

■■■

تتنـاول قهوتها الصباحية كي تسـتيقظ لأنها فشـلت منذ قادت سـيارتها في هذا الصباح الشـتوي الشاحب، في إجبار عينيها على البقاء مفتوحتين، انتظارًا لحضور والدتها.

عدَّلت أثناء تناول القهوة من وضع شعرها، الذي تفضل دائمًا أن تتركه حرًّا لأن هـذا يزعج والدتها، والتي ترى في شـعر المرأة دليـلًا على الطاعة، حيث يجب أن يكون منسدلًا في هدوء على جانبي وجهها، كي يزيد من أنوثتها.

استقبلتها بابتسامة بذلت جهدًا في رسمها على وجهها وهي تقول:

- صباح الخير

اكتفت الأم بهز رأسها قبل أن تسأل:

- عرفتي أن عاصم حياخد المحل؟

استيقظت ربما للمرة الأولى هذا الصباح وردت سريعًا:

- ليه يعني، هو مش أصلًا مؤجر القهوة، إزاي ياخد المحل.

انهمكت والدتها في شـرح الموقف القانوني كما شـرحه لها المحامي، بينما لـم تسـمع هي كلماتها، فقط أحزنها أن تخسـر ذلـك المكان في قلب القاهرة الفاطمية، والذي تجد فيه بعضًا من روحها المتناثرة، والتي تحاول جمعهـا، انتظرت حتى أنهت أمها حديثها، ثم حملت حقيبة يدها وغادرت المحـل دون كلمة واحـدة، اكتفت فقط بأن تلقي نظـرة أخيرة على المكان قبل أن تقود سيارتها وترحل.

■■■

نوستالجيا

تذكرت مها زيارتها الأخيرة للمكان وهي تتناول قهوتها في نفس المقهى الذي سرق صاحبه يومًا قطعة من روحها، نهضت بهدوء واقتربت من عاصم آملة ألا يتذكرها وسألته دون أية مقدمات:

- حضرتك تعرف كاتب اسمه نديم جودت ، كان عمل توقيع روايته هنا السنة اللي فاتت؟

تأمل عاصم ملامحها جيدًا ثم أجاب:

- هو أنا معرفش حضرتك؟... مش عارف شفتك فين قبل كده.

قاطعته باقتضاب:

- حضرتك مجاوبتش سؤالي!

- آه فاكره.

- تعرف حضرتك هو ساكن فين؟

- اتهيألي كان من مصر الجديدة، بس فين معرفش، بس اشمعنى.

ابتسمت مها عند سماعها إجابة عاصم، وغادرت المكان دون أن تلقي نظرة على ذلك المحل المغلق يسار المقهى والذي كان يوما ملكًا لوالدتها ودون أن ترد على سؤاله.

■■■

ضحكا يومًا ما عندما أخبرها أنه ولد في مصر الجديدة، حيث ولدت هي أيضًا على مقربة منه، وتعالت أصوات ضحكاتهما في التليفون عندما أكد لها أنه متأكد أنه عاكسها يومًا ما أثناء مراهقتهما.

توقفت بسـيارتها أمام تلك الحفرة الكبيـرة، التي تقع مكان بيتها القديم الذي ولدت فيه، وسـكنته حتى سافرت، وتسـاءلت للمرة الثانية هذا اليوم بينما العمال منهمكون في رمي أساس لعمارة ضخمة مكان البيت القديم

- إيه اللي جابني هنا؟

■■■

اعتـادت عيناها الظـلام، حيث تختبئ كلما تشـاجر والداها داخل ذلك الـدولاب، صارت تخشـى الصوت العالي، ويجبرهـا صريخ والدتها على الارتجـاف دون توقـف، حتـى تدخـل إلى ذلـك الـدولاب المظلم حيث يخفت الصوت ويعمُّ الظلام.

تدرك مع التكرار أن أحدًا لن يتذكرها إن بقيت هنا، خاصة بعد أن نامت مرات عديدة داخل هذا الدولاب، دون أن يلتفت أحد لغيابها؛ لهذا قررت وهي في التاسـعة من عمرها أن تقتصد من مصروفها؛ لتشـتري قطنًا تسد به أذنيهـا حين يعلـو الصوت، وأن تكتفـي بهذا القدر من علـو الصوت الذي يعوقها عن القراءة.

وعنـد أول مشـاجرة في البيت بعـد هذا القرار، وضعـت مها القطن في أذنيها ، وأقسـمت ألا تتشـاجر مع زوجهـا حين تتـزوج، وألا تزعج طفلها بتلك الأصوات العالية.

ثم ابتسـمت لذلك الخاطر، قبل أن تعترف لنفسـها أنهـا تتمنى أن تبقى

نوستالجيا

وحيدة بلا شريك، ينغص عليها حياتها، ولكنها مضطرة من أجل أن تنجب طفلًا، ثم فتحت كتابها المفضل وأخذت تقرأ دون اهتمام عن سيرة «دون كيخوته»، الذي حارب طواحين الهواء، وفتحت كيس «البوزو» الذي اشترته من المدرسة، لتتناوله على مهل مع القراءة؛ لكتم تلك الصرخات التي أطلقها بطنها من الجوع، بعد أن نسيت الوالدة إعداد الغداء في غمار المشاجرة.

تأملت ذلك العسكري البلاستيكي، هدية الكيس باشمئزاز لا يتناسب مع سنوات عمرها، ثم ألقته بعيدًا.

■■■

3

- عايز أتخرج علشان أبقى شهيد يافندم.

لم يستطع رهط اللواءات الجالس خلف المنضدة، منع أنفسهم من الابتسام بسخرية من ذلك الطالب الصغير، الذي يستعد للتخرج بعد أيام قليلة، ومن أمنيته التي أطلقها أمامهم، مما أثار استفزازه فقال :

- علشان كده عايز أدخل سلاح مقاتل مدرعات أو مشاة.

تصفح اللواء الأقدم في المجلس الذي يختار أسلحة الطلبة الخريجين، ملف نديم، ثم قال دون أن ينظر إليه :

- بس إحنا يا ابني معندناش سلاح شهدا هنا.

ارتفعت ضحكات باقي المجلس، لدرجة أن نديم لم يسمع سلاحه الذي نطق به مدير الكلية، وكأنه بائع متجول يردد نداء يروج به لسلعة يبيعها، دون أي انفعال على وجهه، عجز نديم عن منع دمعة تسللت رغمًا عنه؛ وفاء لجرح السخرية من حلم مشروع.

وعندما غادر المبنى بالكامل، كان يفكر للمرة الأولى منذ وطئت قدماه الكلية الحربية، في تقديم استقالته، لأنه أدرك بعد مرور سنواتها الثلاث

أنه أخطأ الحساب، وأن التحاقه بالجيش لن يحقق أمنيته، أو كما قالها له معلمه في مادة الرماية يومًا، حين عرف أمنيته:

- مصر يا ابني مش حتحارب، إلا إذا إسرائيل وصلت العتبة، ووقفت من الزحمة طبعًا.

■■■

لم يعرف نديم على وجه التحديد لماذا تذكر تلك اللحظة، ربما لأنه شعر بسخرية الدنيا منه، حيث يجد نفسه تائهًا لا يملك من ذاكرته ما يجعله قادرًا على معرفة حتى نفسه، أم لرغبته العارمة في البكاء والتي يغذيها إحساسه المتضخم بالإحباط.

فقط عندما أنهى بكاءه، كان قد اتخذ قراره، فنهض مسرعًا وغادر المنزل تاركًا بابه مفتوحًا ليقف على جانب الطريق صارخًا بعصبية :

- تاكسي.

ومع قدرته على تمييز صوت توقف أول سيارة بجواره، قال بحسم:

- ممكن توصلني شئون ظباط القوات المسلحة.

أدرك سائق التاكسي عدم قدرة نديم على الإبصار، فغادر سيارته، فاتحًا له الباب وهو يقول:

- مش بعيد يا باشا، دقايق نكون هناك.

وخلال رحلة السيارة تحول نديم إلى أذن تحاول التقاط معالم الطريق، تبحث عن أي صوت يحمل الضياء لذاكرة أظلمت دون جدوى.

■■■

يقود سيارته سعيدًا، لأنه يحتفل اليوم بوداع عزوبية صديق عمره، كان يرى زواجه مستحيلًا؛ لأن تردده الدائم وشكّه في إمكانية الاستقرار كانا حائلًا دون ارتباطه، لكن ها هو ذا، يحدد موعد زفافه ، وها هما يحتفلان معًا بوداع عزوبيته مع بعض الأصدقاء.

يتحسس بيده أسفل مقعده؛ ليسحب زجاجة «الفودكا» التي شربوا منها طيلة الليل، قبل أن يتجهوا إلى ذلك المسمط الشهير في إمبابة، يرفعها ملقيًا في جوفه ما تبقى في جوفها وأحمد يعاتبه متكاسلًا بفعل «أكلة» الكوارع الثقيلة.

- يا ابني كفاية شرب.

يصرخ بسعادة وهو يزيد من سرعة سيارته :

- يعني لو ما اتبسطش النهاردة، وليك، حاتبسط امتى ولمين؟

وقبل أن ينهي جملته وفي آخر لحظة يتمكن من إيقاف السيارة، بعد محاولة مضنية للسيطرة عليها حتى لا تنقلب، مصطدمًا بسيارة نقل تحاول الدوران للعودة في الطريق المعاكس.

يغادر الجميع السيارة، يجري نديم في اتجاه أحمد الذي ينزف دمًا من رأسه، يحتضنه وهو يبكي في خوف:

- مالك يا أحمد.

يحاول أحمد معاودة النهوض بعد أن ركع على الأرض ويقول لنديم:

- العربية ، حصل فيها إيه؟

يشير أحد الأصدقاء إلى سيارة اقتربت طالبًا منها اصطحاب أحمد للمستشفى، ويكتفي أحمد خلال ركوبه السيارة بالإشارة لنديم هامسًا:

- أنا كويس متخافش.

وبعد رحيل أحمد يملأ الدم عين نديم فيفقد القدرة على الرؤية؛ لتنقله سيارة إسعاف إلى المستشفى لعلاج إصابته في جبهته.

وأخيرًا في قسم البوليس، اجتمع الأصدقاء مرة أخرى لإنهاء محضر الحادثة، قبل أن يغادروه في طريقهم لبيوتهم، وعلى وجوههم ضحكات ساخرة لا تناسب الموقف نهائيًا.

وأسفل المنزل يتوقفون قليلا لالتقاط الصور بتليفوناتهم المحمولة لتخليد حادث يوم وداع العزوبية.

وفي المساء أصر أحمد على أن يشهد نديم على عقد القران؛ حتى لا يجلس وحده بجوار المأذون بتلك «العمة» من الشاش والقطن، بينما اكتفى الحضور بتبادل «الإفيهات» الساخرة من هيئة الشابين المصابين.

■■■

يتحسس نديم أثر ذلك الجرح في جبهته. على أثر سقوطه في غرفة نومه، قبل أن يغادر السيارة بصحبة فرد الشرطة العسكرية، الذي طلب منه

سائق التاكسي أن يصطحبه للداخل، لا يدري كيف تذكر المكان ولكنه يعرف لماذا أتى؟.

يبتسم لتلك الذكرى التي مرت في خياله عن حفل وداع العزوبية، وهو يصعد درجات سلم المبنى العسكري، وهناك على الشباك المخصص للاستعلام، طلب نديم من الضابط بعد أن أبلغه باسمه بعض البيانات عنه

ابتسم الضابط بسخرية وقال:

- وحضرتك مين علشان تسأل عنه.

- أنا نديم عبد الرحمن جودت.

- وحضرتك بتسأل عن بياناتك ليه؟

- لأني محتاج أعرفها.

أشار الضابط إلى زميله في الشباك المجاور طالبًا منه متابعة الحوار:

- لاحول ولاقوة إلا بالله، حضرتك شارب ايه وجي تطلعه علينا.

أجاب نديم بغضب وبصوت عال:

- هو إيه مشكلة حضرتك، أنا عايز بياناتي.

- مشكلة حضرتي إن حضرتك تديني إثبات شخصيتك:

تحسس نديم جيوبه لا إراديًا وقال:

- معييش أي إثبات شخصية.

- يبقى حضرتك تتفضل تمشي من هنا، قبل ما اجيب الشرطة العسكرية تشيلك.

يصمت نديم محاولًا تخيل الموقف، يرفع يده لتصطدم بالشباك الزجاجي، قبل أن يخفضها في يأس ويهمهم ثم يغادر الشباك في خجل والضابط يتحدث عنه بصوت عالٍ:

- قال إيه هو نديم جودت وجي عايز بيانات عن نديم جودت، الناس اتجننت والمصحف.

■■■

أغلق نديم باب التاكسي خلفه محاولًا العودة لمنزله، قبل أن يوقفه السائق الذي غادر سيارته قائلًا :

- الأجرة يا أستاذ، أنا وديتك شئون الظباط واستنيت لحد ما رجعتك نفس المكان اللي ركبت منه.

- وأجرتك كام؟

- العداد بيقول عشرة جنيه، وزيهم انتظار، يعني عشرين جنيه.

يسحبه نديم من يده حتى مدخل المنزل، وهو يقول:

- تعالى معايا.

وداخل الشقة يشير نديم للسائق قائلًا:

- خد أي حاجة قدامك تمنها عشرين جنيه.

يضرب الرجل كفًا بكف وهو يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

فيردد نديم في حزم:

- مش عايز حاجة تصعب عليك يا أسطى ، جرب كده افتح أي درج، لو سمحت.

يقترب الرجل ليفتح درج مكتبة التلفاز ، ثم يتراجع قائلًا:

- أنا مش عايز حاجة ياعم، سلامتك ألف سلامة، سلام.

ويغادر المنزل مسرعًا ، قبل أن يسمع رد نديم الذي جلس على أقرب مقعد بجواره في يأس وغضب، وهو يقول:

- صحيح نديم جودت بيسأل على نديم جودت!

■■■

كان سعيدًا باحتضان روايته الأولى بعد خروجها من المطبعة، أسرع بكتابة إهدائه الأول لزوجته، وترك بقية النسخ في سيارته صاعدًا درجات المنزل بسرعة؛ لإهدائها إياها لتشاركه الفرح.

لم يلحظ من فرط وردية منظار السعادة الذي يملأ رأسه، نظرة الامتعاض في وجه الزوجة التي قالت دون حماس:

- مبروك ياحبيبي.

نوستالجيا

طلب منها أن ترتدي ملابسها ليصطحبها على العشاء احتفالًا بروايته الأولى، ولكنها أكدت له أنها متعبة وتحتاج إلى النوم، اكتفى بطبع قبلة على جبينها مؤكدًا لها تكرار الدعوة في يوم آخر، وغادر المنزل لتوزيع بقية النسخ على أصحابه.

استقبله الجميع بالابتسامات والتهاني، واحتفلوا معه داخل شقة أحدهم.

وفي الصباح، بعد استيقاظه وأثناء ذهابه لغسل وجهه في الحمام، فوجىء نديم بروايته راقدة بين أحضان صندوق القمامة، أخرجها بغضب، فتح صفحتها الأولى ليجد فيها إهداءه لزوجته بخط يده!

يمسح الرواية في ملابسه؛ ليزيل عنها ما علق بها من القمامة، ويعود إلى بهو المنزل، ليضعها في حقيبة حاسبه المحمول، ويغادر المنزل دون أن يشعر أحد به، ولا بذلك الجرح النازف في روحه، يتذكر طيلة الطريق أن الفجوة بينهما تتسع يومًا بعد يوم، بالذات بعد أن ترك الخدمة في القوات المسلحة، يعلم أنها لم تكن راضية، وأنها رأته خياليًا يعيش في السحاب، بينما هي عاقلة، قدمها ثابتة على الأرض.

ترك الراتب الشهري الثابت، و«البرستيج» العسكري من أجل حلم الكتابة المجنون، الذي لا يطعم الفم، ولا يكسو الجسد، خاطر بها وبأسرته من أجل رغبة طائشة.

■■■

مـع دقات السـابعة والنصف تجمع الأصدقاء الصغار أسـفل بيت نديم للذهـاب للمدرسـة، كان الأصدقـاء جميعا فـي المرحلة الثانويـة، والكل عـدا نديم في مدرسـة «القبة الثانوية»، بينما كان هو يـدرس في «الطبري»، الطريق واحد يتفرع في النهاية لكنهم ظلوا حريصين على السـير معًا طوال أيام الدراسة.

تبادل الأصدقاء قفشـات الصباح بحثًا عن ساندوتشات المدرسة، التي غالبًا ما تنتهي قبل مرور خمس دقائق من الرحلة.

لفت نظر أحد الأصدقاء ذلك الألبوم الغنائي الذي يحمله نديم في يده، اقترب منه مشيرًا للألبوم:

– شريط إيه ده يا أبو النُّدم.

– ده شريط «إكمني» بتاع إيهاب توفيق، عارفه؟

– مـش ده اللـي كان بيغني أغنية «بحبك يا اسـمراني» مع الأراجوز في شريط سونار.

– هو ده، بس نزل شريط كامل لوحده.

– بس أنا حبيت مصطفى قمر اللي بيغني «زينة» أكتر.

– والله وأنا كمان، بس الشـريط ده فيه أغنيتين واحدة اسـمها «إكمني» وواحدة اسمها «سيد الحلوين»، جامدين قوي.

– طيب ما تجيبه اسمعه.

- لا ياعم أنا جايبهولها هدية أصلًا.

يبتسم صديقه بينما يحمر وجه نديم في خجل صبياني قبل أن يقول صديقه:

- علشان كده واخده معاك المدرسة.

وقبل نهاية الطريق يغادر نديم أصدقاءه بعد أن رفع ياقة قميصه كما يفعل «مايكل جاكسون» في صوره وأغلفة ألبوماته الغنائية.

ينتظره الأصدقاء على ناصية أحد الشوارع، منشغلين بمعاكسة الفتيات المسرعات باتجاه مدرستهن، بالزي الكحلي المميز لطالبات المرحلة الثانوية، بينما يلتقي نديم بفتاته بالقرب من باب مدرستها، ويعطيها الألبوم الغنائي، ويعود مبتسمًا، وهم يحاولون دفعه بأكتافهم تعبيرًا عن سعادتهم به.

■■■

يصعد درجات سلم المنزل الريفي بسرعة فائقة؛ ليلحق بوالده الفلكي المعروف، الذي قرر اليوم أن يجعل «نديم» يستخدم تليسكوبه الخاص؛ لمشاهدة النجوم مستغلًا صفاء تلك الليلة الصيفية .

ينظر الوالد إلى نديم بسعادة، أفشتها ابتسامة عريضة على الوجه وقبلة على رأس ذلك الطفل ذي السنوات الثمانية، قبل أن يتبعها تنهيدة كبيرة، قاطعها نديم بطفوليته:

- ها بقى يا بابا.

أشار الوالد إلى السماء قائلًا:

- النهـاردة 18 يوليـو، النجـوم فـي السـما بالترتيب ده مش حتشـوفها غيـر يوم 18 يوليو من كل سـنة، لأن وضـع الأرض بيتغير كل يوم، وبتلف حواليـن نفسـها كل 365 يوم، قـرب كده تعالى ، شـايف مجموعة النجوم اللي هناك دي؟

تابع نديم إشارة يد والده وقال:

- اللي شكل المغرفة دي يا بابا.

- دي مجموعة الدب الأكبر يا نديم.

انهمـك الدكتورعبدالرحمـن جودت في شـرح تفاصيـل المجموعات النجميـة للفتـى المبهور، والـذي كان حريصًا على حفـظ الصورة كما هي في رأسه.

قبـل أن يشـبع الأب بالمزيد من الأسـئلة حول ماهيـة النجوم وعلاقتها بالشـمس والأرض، بل ويجيب عن بعض أسئلة الأب التي يتأكد منها، من استيعاب طفله لما شرحه له.

وقبل أن يغادرا سطح المنزل، احتضن الأب الطفل في حنان، وقال له:

- عايزك تبقى أحسن واحد في الدنيا، وأنا عارف إنك تقدر.

بينمـا انهمك نديم في تأمل وجه الوالـد الذي نحتته التجاعيد، وأضاف إليها سمار بشرته جلالًا يليق بتلك الملامح الفرعونية التي يعشقها.

■■■

أثار اشتباك الذكريات الحيرة في رأس نديم، لم يدرك ارتباطهما، حاول التفكير أثناء إعداد كوب من الشاي لعله يصل إلى نتيجة أو علاقة بين ذكرى إصدار روايته الأولى وتلك الليلة الفلكية بصحبة والده.

وبينما هو غارق في التفكير أخذ يضع ملاعق السكر على كيس الشاي في الكوب الفارغ، استدعاه للحياة صوت انفصال الكهرباء عن «الغلاية الكهربية» مشيرة إلى جهوزية الماء للصب، أسرع ليصبه وفي رأسه سؤال يتردد بشدة:

- إزاي البيت مهجور وفي شاي وسكر وكان في أكل في التلاجة.

■■■

لم يكن يدخل غرفة أخيه إلا في موعد النوم، بقيت تمامًا كقدس الأقداس الذي لا يجرؤ الطفل الصغير على اقتحامه، بصور السيارات المعلقة على الحوائط وتلك الموسيقى غير المفهومة التي يسمعها الأخ الأكبر خلال انكبابه على تنفيذ مشروع ما بمسطرة «حرف تي» الشهيرة والخاصة بالمهندسين، فقط حين تدق الساعة التاسعة مساء، ينفتح الباب ويجتازه الصغير مرغمًا بأمر من والدته أو والده، آخر ما يسمع من «التليفزيون» هو الموسيقى المميزة لنشرة أخبار التاسعة على القناة الأولى، وأول ما يستقبله، عقب استقراره في فراشه الذي كان مكونًا من دورين، احتل نصفه الأسفل بينما احتل أخوه الأكبر العلوي، صوت فاروق شوشة الرخيم في إذاعة البرنامج العام وهو يقول.

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

كان يتظاهر بالنوم بينما يسمع ما يدور في الراديو دون أن يعي ما يردده البرنامج، يتأمل أخاه الغارق بين لوحاته وكأنه راكع في صلاة على ذلك اللوح الخشبي المائل، يرسم خطوطه المتقاطعة التي تسلل يوما وتصفحها، يشعر بالفخر لكون أخيه مهندسًا، ولا يعرف سببًا لهذا الفخر سوى أن أباه فخور بهذا، يتمنى يومًا أن يصير صديقًا لأخيه كأصحابه، لكنه لا يحب السيارات ولا يجيد الحديث عنها، كما أنه يخاف من أخيه أكثر من والده، ولا ينسى أبدًا يده الثقيلة.

ولكن مع بداية سريان صوت سميرة عبدالعزيز في الراديو من خلال برنامج «وقال الفيلسوف» كان يشعر وكأن صوتها يفرد غطاء ما حول عينيه ومخه، وبينما تحاور فيلسوفها العزيز سعد الغزاوي في البرنامج الذي أخرجه إسلام فارس كما عرف من التتر، كان الصغير يغوص في أحلامه وعلى شفاهه عبارتها المميزة :

« كان لي صديق فيلسوف، بأقوال الحكماء شغوف».

■■■

عادت مها إلى بيتها على أطراف مدينة القاهرة غاضبة من عجزها عن الوصول لمكان نديم، ألقت بحقيبة يدها على أول مقعد بجوار الباب وأسرعت إلى الحمام لتحصل على «دش» من المياه الساخنة التي تعشقها، وتعتبرها الحل الأمثل لمقاومة الإرهاق، وأحيانًا الغضب.

وأثناء تسلل الماء إلى كل حناياها صرخت بصوت عال وهي مغمضة العينين:

- هو أنا بدور عليه ليه أصلًا، ماهو اللي اختفى، كل ده علشان حدوته عن أسطورة عبيطة، وكام علامة حصلوا بالصدفة، لو هو عايزني يبقى يدور عليا، وغادرت حوض الاستحمام وهي تتذكر صوت نديم الهادئ وهو يروي أسطورته قائلًا:

- أنا مؤمن جدًّا بأسطورة إغريقية بتقول: إن آلهة الإغريق خلقوا الإنسان كائن واحد، مش ذكر ولا أنثى، ولما غضبوا من تصرفاته قسموه نصين ذكر وأنثى، وبقى عذاب كل نص: إنه يدور على نصه التاني، في ناس مش بتلاقي وبتعيش متعذبة، وناس بيتهيألها إنها لاقت، ودي بتتعذب أكتر لما تكتشف الحقيقة، وناس بتفضل تدور، وناس بتلاقي، وانا حاسس إني أخيرًا وصلت.

عجزت عن منع تلك الابتسامة التي صاحبها ارتجافة في القلب من ذكرى سعيدة وقريبة ، قررت أن تستمع إلى تلك الأغنية التي أرسلها لها قبل اختفائه بيوم واحد، ورقصت على أنغامها وحيدة أمام المرآة، ولحن أغنية فريق «مسار إجباري» وكلماتها تملأ فراغ الغرفة.

« حَبِيبِتِي

..شَرْطَه مَايْلَه

..فَرَاغْ

وهَاكْتُبْ لِيهْ حُرُوفْ اِسْمِكْ؟

مَا هُو انْتِي فْ قَلْبِي سَاكْنَه الْقَلْب
عَارْفَه بْقِصِّتِي وْحَالِي
ومِينْ غِيرِكْ فِي قَلْبِي اكْتُبْ لُه مِرْسَالِي؟
..و...... أمَّا بَعْد
مَانِيشْ عَارِفْ جَوَابِي دَا جَوَابِي الكَّامْ
مَا عُدتِشْ بَاحْسِب الصَّفْحَاتْ
مَا عُدتِشْ بَاحْسِب الأقْلاَمْ
مَا عُدتِشْ بَاحْسِب اللّي ضَاعْ مِن الأَحْلاَمْ
..كِفَايَه انِّي بَاحِبّكْ بس
..وقَلْبِكْ لَوْ بِقَلْبِي حسّ
أَوْ شَافْ حَالُه فِي بْعَادِكْ
لَصَلَّى لْرَبُّه واسْتَغْفَرْ لِذَنْبُه...وْصَامْ»

■■■

غادرت مها منزلها غاضبة، فمنذ وصولها إلى برلين بصحبة والدتها وحلمها بالحياة والدراسة في دولة أوروبية قد تبخر، أحزنتها برودة الطقس، وبرودة أهل البلاد التي تضاهي برودة الطقس إن لم تزد عنه.

أصرت في عناد طفولي يناسب أعوامها الـ17 على إلقاء الصباح باللغة

الألمانيـة علـى كل من قابلته حتى وصلت إلى مدرسـتها، بائـع اللبن، بائع الجرائد، بائعة الفاكهة، عامل التوصيل، ولـم يرد أحدهـم السلام ولم يبتسم حتى ليرد تحيتها.

ألقت بحقيبتها المدرسية الصغيرة على مقعدها في الفصل الدراسي وتطلعت فـي وجـوه زملاء دراسـتها الذين مضى علـى تواجدها معهم أكثر من شـهرين، اكتشـفت أنها لا تعرف أسـماء أكثر من نصفهم، اكتشفت أيضًا أنها لم تنجح في خلـق صديـق واحد منهم، تعلم مـن عيونهم وتصرفاتهم أنهـم لا يحبونها، وأن سمار بشرتها وجنسيتها العربية يجعلانها هدفًا واضحًا للتمييز العنصري، الذي كاد يمنعها من الدراسة لولا جواز سفرها الأمريكي الذي حصلت عليه لولادتها فـي «نيويورك»، فتحـت كتابها في غضب، وكتبت على صفحته الأولى وهي لم تعتد أبدًا الكتابة على صفحات الكتب التي صادفتها طيلة عمرها.

« أنا لازم أرجع مصر».

وفـي رحلة عودتها من اليوم الدراسـي لاحظت للمـرة المائة أنها تصل إلى المدرسة قبل أن تبدأ الشمس رحلتها وتعود مساءً في عتمة الليل.

وفي البيت، وقبل أن تخلع عنها ملابسها، وقبل أن تضع حقيبتها، وقفت أمام والدتها التي جلست تشاهد التلفاز قائلة في حسم:

- ماما عايزين نرجع مصر.

لم تسـتمع نهائيًا إلى ردود الأم الغاضبة، فقط غادرت لتعود إلى غرفتها ناوية أن تنتهي علاقتها بكل هذا الكم من البرود اللا إنساني مع نهاية عامها الدراسي.

بحثت كثيرًا عن جواز سفرها دون جدوى، فتشت كل الحقائب وكل الأدراج ولم تصل إليه، انتابها غضب طفولي مجنون، كان يزيد يومًا بعد يوم في ظل غربة روح لا تنتهي.

■■■

صار نديم يكره اللونين الأصفر والأزرق، فكل ما يحيط به في وحدته العسكرية هو لون رمال الصحراء الشرقية الأصفر، ولون سمائها الزرقاء، حتى تلك المباني المتناثرة التي كانت في تكرارها تبدو كطاقم أسنان لرجل عجوز، قد زال لونها الأزرق أيضًا بفعل غضب الرياح وعصفها بالرمال، لتكتسب لونًا وسطًا ما بين الأصفر والأزرق، أجبرتها الطبيعة أن تنافق اللونين الأكثر حضورًا، وحتى جدران غرفاتها المنفصلة تم طلاؤها باللون الأصفر، الذي عزم نديم بعد انقضاء عامه الأول في الوحدة على تغييره إلى اللون الأخضر الذي يكرهه كثيرًا، لكنه أراد أن يتحدى الصحراء بأكثر الألوان التي تغيظها وتثير غيرتها.

صارت تلك الغرفة. التي تقع في الدور الأرضي من مبنى مكون من طابقين آخرين، أو الغرفة الخضراء، كما أطلق عليها قائده المباشر، ملتقى لكل الجنود وضباط صف سريته التي تحتل الدور الأول من هذا المبنى، أحبه الكل لتواضعه، وعمله الدائم، وعشقه الخاص للدبابات، والذي يصل في بعض الأحيان إلى قضاء الليل بأكمله داخل دبابة، ليتعلم الجديد، ويقوم بفك وتركيب كل جزء بيده حتى يتقن ما يشرف عليه.

إلا أن القيادة التي تقع في مبنى آخر على بعد أمتار قليلة من المبنى الذي تقع فيه غرفة نديم، قد اختلفت تمامًا عن جنود وضباط صف الوحدة، حيث أدى عدم ظهور نديم في «ميس» الضباط، وهو الاسم العسكري للمكان الذي يتناول فيه الضباط وجباتهم، ويجلسون فيه معًا لمشاهدة التلفاز، أو ممارسة بعض الألعاب الترفيهية، إلى نوعٍ من التجافي، لم يدرك الملازم الصغير أثره على مستقبله.

واجه الضابط الشاب الرفض في كل طلباته، لدرجة أنه صار يطلب من ضباط آخرين طلبها من قائد الوحدة ليوافق عليها، حتى قال له أحدهم في النهاية: إن القائد لا يستخف دمه.

أدهش نديم هذا في البداية، إلا إنه أمام ضغوط العمل المستمرة تجاوزه، خاصة أن ذلك القائد نفسه كان يلجأ إليه أول ما يلجأ عند التعرض لأي تفتيش، أو خوض أي مشروع تدريبي، أو مسابقة.

فقط في نهاية العام الثاني من خدمته، استوعب نديم الحقيقة، عندما تم استدعاؤه للتوقيع على تقرير خدمته السنوي السري، والذي لا يوقع عليه الضابط إلا إذا حمل تقديرًا ضعيفًا.

وأمام قائد الوحدة الأكبر الذي طالبه بالتظلم من التقدير إذا كان يشعر بالظلم، وقع نديم وانصرف عائدًا إلى غرفته الخضراء، بعد أن طلب من مندوب الوحدة شراء كمية كبيرة من الطلاء الأصفر ليعاود طلاء غرفته.

■■■

تثاءب نديم للمرة العاشرة خلال نفس المؤتمر، والحضور يستعدون للانصراف، وقبل أن يتبعهم، أشار له قائد الوحدة قائلًا:

- نديم استنى.

اقترب نديم من قائده الذي نادرًا ما تحدث معه منذ انتقاله للخدمة في تلك الوحدة التعليمية، وعدل من وضع غطاء رأسه وقال:

- أؤمر يافندم.

- إنت مقدم استقالتك يا نديم.

- تمام سيادتك.

- ممكن أعرف ليه.

- أنا خدمت 7 سنين يافندم في وحدة مقاتلة، وبقالي 3 سنين وشوية هنا في المركز، يعني كده كملت ال10 سنين المطلوبين لقبول الاستقالة، وبصراحة شايف ان مستقبلي انتهى هنا في الجيش، ومحتاج الحقه بره.

تأمل القائد أوراق الملف الكبير الذي حوى استقالة نديم، مستعيدًا في ذاكرته كم المشاكل التي يثيرها حوله ذلك النقيب، وتلك الجزاءات التي حصل عليها، ومقولة قائده السابق الذي وصفه قائلًا « ظابط شاطر جدًّا، مش منضبط نهائيًّا»، قبل أن يوقع بالموافقة دون أن ينظر لوجهه، أعطاه الملف، ليقوم بالحصول على موافقة مدير إدارته.

أدى نديـم التحية العسـكرية مبتسـمًا، وغادر المكتب عائـدًا إلى مكتبه - المطلـي باللـون الأصفر - ليشـير إلـى ذلك الجندي الجالس لحراسـة المكاتب قائلًا:

- وصِّيلـي المندوب بكـرة يجيبلي علبتين بوية، واحـدة حمرا وواحدة بيضا، ولا أقولك خليه يجيب «بسـتلة» بلاسـتيك لونها روز، وشوفلي حد يدهنلي المكتب.

■■■

غادرت مها سـيارتها في اتجاه ذلك المبنـى الزجاجي في تلك المنطقة الإداريـة، لفت انتباهها تلك اليافطة الكبـرى لمجلة «خيال الضوء» والذي كان نديم يعمل بها صحفيًّا حين قابلته، وطلب منها إجراء حوار معها.

تمنت في سرها بعد أن احتفظ فرد الأمن ببطاقتها الشخصية حين طلبت مقابلة مدير شئون العاملين أن يكون من غير المهتمين بمجال السينما، وألَّا يتذكر اسمها كمخرجة شابة.

وداخل المكتب اكتفت بتعريف الشاب حليق الرأس باسمها الأول.

- مها.

أشـار لها الشـاب بالجلوس متشاغلًا بالنظر في حاسـوبه المفتوح على أحد المواقع الرياضية.

- أؤمريني.

- حضرتك في صحفي عندكم اسمه نديم جودت، وكان ليًا عنده شغل ومش عارفة ألاقيه، ممكن أعرف عنوان بيته.

أثار السؤال فضول الشاب، فأغلق شاشة حاسوبه والتفت لها متأملًا إياها جيدًا:

- بس حضرتك عارفة ان ده ممنوع، حضرتك قولتيلي اسمك إيه؟

قفز قلب مها مغادرًا مكانه الأثير في صدرها هلعًا قبل أن ينقذه عقلها بنطق الاسم الثنائي الذي لا يعرفه سوى المقربين، حيث اشتهرت بلقب العائلة.

- مها جميل.

- طيب ممكن أعرف طبيعة الشغل.

- حضرتك عارف الصحفيين بيبقى بينهم تحقيقات مشتركة ومواقع على الإنترنت وحاجات كده يعني.

وصاحبت جملتها بابتسامة حرصت على سحرها، لعلها تليِّن قلب الشاب العابس المتشكك أمامها.

- اعتدل مدير شئون العاملين معاودًا فتح شاشة حاسوبه قائلًا:

- بس هو مبيجيش بقاله كام يوم.

صمتت مها لأنها لم تجد ردًّا على ما قال، كما أنها لم تتعود الاستجداء طيلة عمرها، وطالت فترة الصمت لدقائق حسبتها ساعات، قبل أن يلتفت إليها الشاب وهو يفتح أحد الملفات أمامه قائلًا:

- بس انت حظك حلو، أنا لسه جايب ملفه علشان ابعت اسأل عليه.

وكتــب لها العنوان على ظهر ورقة نتيجة مكتب، وأعطاها لها، قرأته في عجالة، وقالت:

- لا، هو مش موجود في العنوان ده حضرتك، أنا رحتله هناك امبارح:

بدا على الشـاب الملل من مواصلة الحوار فكتب لها عنوانًا آخرًا، وهو ينهض لتنصرف، وتتركه يتابع ذلك الموقع الرياضي.

- متبقّـاش غيـر عنـوان بطاقتـه بتاع مصـر الجديدة، هـو ده اللي عندي حضرتك.

التقطـت مهـا العنوان في لهفة، وفشـلـت فـى أن تكبت تلك الابتسـامة العريضـة التي احتلت وجهها، وهي تغادر المكتب شـاكرة الشـاب، الذي هز رأسـه لثوان معدودة قبل أن ينسـى سـبب حضورها إلى مكتبه، منشغلًا بأخبار رحيل مانويل جوزيه عن الأهلي.

■■■



تأملت مها الورقة التي تضم عنوان نديم للمرة العاشـرة في نهاية صباح اليوم الجديد، أحزنها للغاية عدم قدرتها على الذهاب إليه، وضعت الورقة في رفق في أحد جيوبها، وأعادت ترتيب أوراقها الرسمية، قبل أن ترد على الهاتف الذي ارتفع رنينه.

- أيوه إيه العنوان، تمام حاكون هناك في خلال ساعة.

أدارت سـيارتها في طريقها لمكتب المأذون لتنهي زواجها الذي استمر 10 أعوام بصفة رسـمية، بعد أن أنهته بصفة غير رسـمية منذ شهور طويلة، كانـت تنوي منـذ ليلة الأمس أن تذهـب إلى بيت نديم فـي مصر الجديدة، لكـن طليقها هاتفها ليلًا بصورة مفاجئة ليغير خططهـا تمامًا، تدرك أن هذا حمل يجب أن تزيحه من على كتفيها قبل أن تلتقي «نديم».

تكتفـي خـلال رحلتها بالسـيارة إلى حي المهندسـين بتصفـح وجوه قادة السـيارات الأخـرى علـى الطريق، تبحث فـي كل الوجوه عن السـعادة، ذلك الكائن الأسـطوري الذي يسـكن أرض الأحلام التي لا يطؤها الكبار، تلتقيها مشرقة في عيون الصغار الذين اكتفى ذووهم بقيادة سيارتهم بلا أي تعبير، حتى إن أحدهم تحديدًا عندما ابتسم، تلفت حوله وأخفى الابتسامة في خجل.

تذكرت عندما قال لها نديم يومًا في الهاتف.

- ناس الصبح غير ناس بالليل، ناس الصبح دايمًا مكشرين مهمومين، رايحين شغل وراجعين منه، ناس بالليل ناس بتحب الحياة، حتلاقيهم دايمًا مبتسمين.

ابتسمت لتلك النظرية، خاصة أنها اكتشفت أنها تنتمي دائمًا لعالم النهار، وأنه من عملهم سهر الليالي، متواصلين عبر الرسائل القصيرة، ورسائل الإنترنت، أدركت ساعتها كم هو كائن ليلي، قادر على أن يهبها السعادة دائمًا.

اكتفت بمحو الإبتسامة عند وصولها للعنوان المُحدد، أغلقت سيارتها واتجهت إلى سلم البناية الذي صعدته قفزًا، سعيدة بالوصول إلى نهاية تلك العلاقة.

■■■

جلست مها وحدها في صمت محاولة البكاء، تعرف أن دموعها قليلة، وأن البكاء إحدى تلك الخواص التي لا تملكها، اليوم أنهت حبها الأول الذي دام أربع سنوات، كانت تعرف منذ اليوم الأول أنه حب لن يكتمل، قبلته لأنها ملت الوحدة، اجتاحها بعواطفه، فاستسلمت، أقنعت نفسها أمام ما قدمه من عواطف أنها أحبته، ولكن الأيام لها فعل السحر على كل مشاعر غير حقيقية، تحول هو مع الوقت إلى عاشق غير مبال، يكفيه من الحب لحظاته الأولى، يكفيه أن يشبع غريزة الصياد في أن يضم لمجموعته

أنثى جديدة، أما هي فتحملت، كما اعتادت دائمًا أن تتحمل، حاولت أن تتغير كي ترضيه، قاتلت اليأس الذي يدب في أوصال ذلك الحب منذ السنة الثانية، ونجحت أن تحافظ عليه حتى فقدت احتمالها ذلك اليوم، حين بكى للمرة الثالثة هذا العام عندما وجدته بين أحضان أخرى، لم تعرف لماذا كرهت دموعه هذه المرة، ولماذا رأت في خلفية تلك العيون الباكية نظرة لا مبالية، لممثل جيد يتقن أداء دوره أمام العيون، رأته للمرة الأولى بقلبها، اكتشفت أن العلاقة عبثية، يستحيل أن تكتمل، أعطته منديلًا ورقيًا ليمسح دموعه وانصرفت بعد أن قالت له:

- المنديل ده آخر حاجة ممكن أديهالك في حياتي، انساني وعيش حياتك، لأني من اللحظة دي معرفكش.

لم يؤلمها أنه لم يحاول الاتصال بها منذ غادرته، بالعكس شعرت بالراحة، أعادت تحليل كل تفاصيل تلك العلاقة منذ يومها الأول، واكتشفت أن ما خلق ميتًا يبقى ميتًا، لم يكتشف البشر بعد سر الحياة، ولن يكتشفوه؛ لأنهم دائمًا للموت أقرب.

عجزت عن البكاء كي تفرغ حمولتها النفسية، وقاطعها ذلك الرنين المتواصل لهاتفها من زميل آخر في دراستها التي اقتربت من نهايتها.

أمسكت بالهاتف لترد عليه وداخل عقلها يدور سؤال واحد:

- أنا كنت بعمل إيه في نفسي طول الـ4 سنين دول.

■■■

نوستالجيا

أسرع نديم خطاه ليصل إلى ذلك المستشفى الاستثماري في مصر الجديدة ليلحق بميعاد زيارة والده، وقبل أن يعبر بوابة المستشفى أوقفه ابن عمه الذي لا يراه كثيرًا، سلم عليه نديم بحرارة ولكنه فوجئ به يحتضنه، تخلص منه في هدوء مستأذنًا:

– استأذنك ألحق اشوف بابا.

أفلتت دمعة من عيني الرجل الذي اختلط بياض وجهه بحمرة شديدة على أثر الانفعال

– خلاص يا نديم، عمي تعيش انت.

لم يشعر حينها بنفسه، فقط انطلق ليركض صاعدًا درج المستشفى، مقتحمًا غرفة والده في الدور السادس، ليجد ذلك العامل بزيه الأبيض يعيد ترتيب الغرفة، اكتفى بالوقوف مذهولًا دون أن يسأله عن مريضها.

التفت له العامل وعلى وجهه نظرة أسى.

– الدكتور عبدالرحمن، تعيش انت، حتلاقيه تحت في البدروم في غرفة الغسل.

أمسك بهاتفه وهو يجر قدميه، طلب رقم أخيه الأكبر، لم يتحدثا، فقط بكى عندما سمع صوت أخيه الذي بكى بدوره، عاد إلى مدخل المستشفى، خانته قدماه، عجز عن الوقوف، ألقى بجسده على الرصيف وانهار باكيًا.

وقبـل أن يمـر وقت قليـل كان العديد من الحضور قد التـف حوله، وصل أخوه، زوجا أختيه، اصطحبه أحدهم ليلقى نظرة أخيرة على جسد والده.

ابتسامة مطمئنة ارتسمت على وجه الجسد النائم، لم يدرك نديم أبدًا أنه رحـل، اقترب وقبل جبهته قبل أن ينهار تمامًـا أمامه ويقبل في نهم أطرافه، مستنشـقًا رائحتـه للمـرة الأخيـرة، يجذبـه أخـوه وزوجـا أختيه بعيـدًا عن الجثمـان، بينما يحاول هو التشـبث فقط بابتسـامة الأب التـي لن يراها مرة أخرى، يبكي الكل حتى تختلط دموع السند بالمسنود، وأمام مدفن الأسرة عجز عن أن يصاحب الجثمان لمسـتقره الأخيـر، اكتفى بالجلوس بصحبة المعزين، وهو يتساءل في حزن:

- إيه العلاقة بين وفاة بابا وإحساسي دلوقتي إني عريان.

■■■

- تـرك نديـم الماء البارد يغسـل عنه أفكاره وهو يسـتحم، قرر أن ينهي اسـتحمامه ليرتب فـي هدوء ما تذكره حتـى الآن، كان يتمنـى أن يكتبه في ورقة ليعيد رسـم خريطة حياته التي ذابت بفعل النسـيان، لكنه سيحاول أن يفعل ذلك بين طيات رأسه.

أعاد ارتداء ملابسه وجلس على كرسيه المفضل منذ اكتشف ما يمر به، أمسك برأسه بين يديه وقال بصوت عال

- نديـم عبد الرحمن جودت، ظابط سـابق في الجيش، بيكتب روايات

بس معرفش بيشتغل ايه دلوقتي، عنده زوجة وولد وبنت، عنده أختين، وأخ، أبوه متوفي، قاعد في بيت مهجور، أصحابه سابوه من فترة، بس فيه حاجات ليّا، يبقى غالبًا ده بيت العيلة، ايوه صح بيت العيلة، بأمارة سخان الغاز، طيب الأكل والشاي والسكر دول جم منين؟، كمان فيه الست اللي معرفش هي مين بالظبط، واللي بتيجي في الأحلام دايمًا مبتسمة.

ابتسم رغمًا عنه عندما أعاد تذكر وجه تلك المرأة التي لا يعرفها، اعتدل في كرسيه احتراما لابتسامته وقال مرة أخرى:

- الحل إنى أوصل لاخواتي، بس إزاي.

غرق في محاولات يائسة لتذكر أي معلومات عنهم، عصر ذاكرته المرة بعد الأخرى وفي كل مرة خذلته، تعجب من قدرة الإنسان على عدم اعتياد الخذلان، وأنه في كل مرة يؤلمه أكثر من المرة التي سبقتها، أوهنه العجز وذهب بالآثار الطيبة لذلك الحمام البارد، نهض ليحرك قدميه في فراغ بهو المنزل محاولًا تجاهل ذلك العجز.

■■■

كما اعتادوا في تلك الليالي الشتوية الباردة، وبعد أن أنهى كل منهم فروضه الدراسية اليومية، التأم شمل الأسرة في الثامنة مساء حول التليفزيون لمشاهدة مسلسل «عيلة الدوغري»، بينما اتخذت الوالدة مكانها المميز أمام السبرتاية لإعداد السحلب للأبناء.

انشـغل الكبار بمشـاهدة المسلسل بينما انشـغل الصغير نديم بمشاهدة ردود أفعـال الكبـار، حرص علـى تناول كوبه السـاخن من السـحلب بعد وصلة قبلات شديدة للأم، ومع صرخة من آمال حتى يتوقف عن إزعاجهم لمشـاهدة المسلسـل، صرخ بالجملة التي يحفظها ليثبت للجميع أنه يتابع الحلقات كما يتابعونها، كبيرًا وليس صغيرا.

- أنا عايز جزمة يا حسن.

ابتسمت إيمان وجذبته من يده ليجلس بجوارها وهي تقول:

- يعني ملقيتش غير شـفيق نور الدين تقلده، خليك في يوسـف شعبان ولّا يسري مصطفى.

اسـتجاب نديم لأخته الأقرب وجلس بجوارها قبل أن يهمس في أذنها في خبث طفولي

- بس يسري مصطفى شكل أمجد.

عجـزت إيمان عن كتم ضحكتها التي ارتفعت قبل أن تلقي نظرة جانبية على أخيها الأكبر الذي ارتدى قميصًا يشبه قميص الممثل يسري مصطفى في المسلسل وبنفس طريقة تصفيف الشعر، حتى بدا وكأنه يشبهه فعلًا.

قبل أن تصمت بعد زمجرة آمال وهي تحتضن الصغير بسـعادة، وتغرق ضحكتها في كوب السحلب.

■■■

نوستالجيا

أنهـت مها إجراءات طلاقهـا وانصرفت عائدة لبيتهـا الجديد، اطمأنت علـى عودة الصغير من المدرسـة، فضلت أن تقضي اليوم بجواره تشـاركه ألعابـه الطفولية، نسـيت مع الوقت كل ما مر بها وعـادت لطفولتها لتختبئ منـه ويبحـث عنهـا، عجـزت تمامًـا حيـن أمسـك بهـا عـن أن تتوقف عن الضحك المتواصل، والذي لم تكن تدري سـببًا له، سـوى أنها أخيرًا تشعر أنها وجدت نفسها، كثيرًا ما افتقدتها طيلة الأعوام العشرة الماضية.

وفي المسـاء أودعت الصغير فراشـه بعد يوم حافل بالمجهود، غنت له كلَّ مـا يحبـه من الأغانـي حتى يغرق في النـوم، ثم غادرتـه لتأخذ حمامها الأخيـر هـذه الليلة، وقبـل أن تذهب إلـى فراشـها، أمسـكت بالورقة التي تحوي عنوان نديم لتتأملها مرة أخرى.

ودون أن تـدري اختطفهـا النوم فـي وضع الجنيـن، والورقة في حضن يدها مضمومة كأنها تخشى ضياعها.

وفي الصباح بعد أن أدت طقوسها اليومية التي تنتهي باصطحاب الصغير إلى مدرسـته، وكوب القهوة الصباحي من On The Run، قادت سيارتها إلى مصر الجديدة، باحثة عن عنوان نديم، على أمل أن تجده وتعرف لماذا اختفى؟

■■■

تتوقف الحافلة عند تلك المحطة المظلمة في طريق المطار.

يغادرها نديـم في هدوء مهتمًا بتلك الحقيبة البلاسـتيكية الصغيرة التي يحملها بكلتا يديه .

يتلفت حوله كثيرًا في قلق ، يعبر ذلك السور السلكى المتهالك، ثم يمد يده ليمسح الدموع المتساقطة من عينيه، بعد أن حجبت رؤيته و أخفت عنه هدفه .

يعود لإلقاء نظرة سريعة خلفه ، و يوغل فى اتجاه الصحراء .

يتوقف قليلًا . .يتلفت حوله ثم ينحني ليجلس على الأرض ، يضع الحقيبة بجواره ، ثم يبدأ بالحفر فى صمت معتمدًا على ضوء القمر الشاحب .

تختلط دموعه برمال الصحراء التي تلتصق بيديه فلا يبالي ... ويستمر بالحفر.

يخرج ما فى الحقيبة يتأمله لحظات في صمت ، يعلو صوت بكائه حتى يغزو صمت الصحراء ، يضع ما في يده برفق في حفرته.

يتذكر سريعًا مراسم الدفن .... ينسى الكثير، يوسِّده التراب ، يُغسِّله بالدموع.

يبكى أكثر و يستغفر الله كثيرًا.

يقوم بإهالة التراب على ما وضعه ، يسجد حتى تلتصق جبهته بالأرض، يدعو في خشوع.

- يارب اغفرلي و ارحمني ، وإن مرحمتنيش وأنا أستحق، فعذبني بعذاب أهل الأرض كلهم.......

ينهض مسرعًا ليغادر المكان ناسيًا أن ينفض غبار الصحراء عن وجهه، وصورة حزينة خانقة تتأرجح في مخيلته ، لحبيبته تبكى بين ذراعيه من الألم والخجل وهما يغادران عيادة طبيب التوليد .

■■■

أزعجت نديم للغاية تلك الذكرى الأخيرة التي مرت بمخيلته، كالعادة لم يعرف لها تفسيرًا، فقط تساءل في حزن، هل فعل ذلك يومًا؟

هل تخلص من جنين ودفنه في الصحراء منذ زمن طويل مضى؟

لم يجد ردًا واكتفت ذاكرته بممارسة الصمت الذي يثير غيظه، صرخ بصوت عال قبل أن يتحسس الحائط الأقرب بجواره ويطرقه برأسه في عنف قائلًا:

- يارب أموت، أنا كان لازم أموت، اللي أنا فيه ده مش حياة، ده أكيد عذاب، وغالبًا عذاب على اللي عملته في حياتي.

ومع شعوره بالسائل الدافئ اللزج الذي سال على وجهه، توقف عن طرق رأسه في الحائط، وسقط مغشيًا عليه.

لم يتمكن رنين جرس الباب المتواصل من أن يفيقه من إغماءته، بينما أخذت مها خارج الباب في الطرق على الباب بيدها على أمل أن يأتيها رد من الداخل.

وبعد قليل أدركت أن البيت خال من السكان، فغادرت في يأس وهي تسأل نفسها كيف تجده؟ ولا مكان آخر تعرفه، يمكنها فيه أن تصل إليه.

■■■

تعيد تصوير المشهد للمرة العاشرة، تعرف جيدًا أنه فيلمها الأول، ذلك الحلم الذي داعبها منذ كانت في ألمانيا يوم عادت لتدرس في معهد السينما، والذي صبرت عليه سنوات وسنوات حتى يتحقق.

تعرف مها أن الأحلام تظل دائمًا سعيدة حتى تبدأ في التحقق، فيحتل مكان تلك السعادة خوف داهم من الفشل، عانت هي ذلك الخوف لمدة ثلاث سنوات هي عمر التجهيز والتحضير للفيلم، أعادت مع كاتبه تصور السيناريو عدة مرات، لم توافق على أن تبدأ التصوير قبل أن تطمئن جيدًا لكل الظروف الإنتاجية.

ولكن حتى عندما بدأ التصوير، مازالت تمارس خوفها على الممثلين، وعلى طاقمها خلف الكاميرا رغبة في أن يخرج كلٌّ منهم أفضل ما لديه.

تدرك أن هذا يثير الغضب في نفوس النجوم، الذين يرونها تقدم عملها الأول، إلا أنها نجحت في امتصاص ذلك الغضب بعد أن شاهدوا بأعينهم نتائج العمل في الأيام الأولى، وعرفوا أنها تصنع فيلمًا حقيقيًّا.

قطعت صرخة عامل الكلاكيت استعدادًا لبدء إعادة المشهد حبل أفكارها، وانتبهت كل حواسِّها لتغوص داخل المشهد الذي يعترف فيه الزوج لزوجته بالخيانة.

أرضاها المشهد أخيرًا وصرخت بصوت لم تعتده من نفسها قبل بدء العمل في الفيلم.

- Cut، فركش.

ثم اقتربت من بطلتها هامسة في هدوء

- كده أحسن بكتير، بس متهيألي الزوجة اللي جوزها يعترف لها بالخيانة مش المفروض تبكي عليه، لو مضطرة يكون فيه سوائل، تبقى تتف عليه أحسن.

■■■

نوستالجيا

تقود مها سيارتها في طريق عودتها اليومي من معهد السينما إلى بيتها في مصر الجديدة، أرهقها الزحام وتخشبت مفاصلها من القيادة، تعيد تحريك جسدها داخل مقعد السيارة الضيق، ليستعيد حيويته، يقطع الطريق أمامها خروج سيارة بشكل مفاجئ من شارع جانبي، تضطر إلى ضغط مكابحها ضاربة بيدها على مقود السيارة في غضب، قبل أن تلقي نظرة غاضبة على ذلك الشاب المبتسم الذي يقود تلك السيارة وبجواره شابة محجبة.

أشار نديم بيده معتذرًا إلى تلك الشابة الغاضبة التي تقود السيارة التي قطع عليها الطريق وهو يبتسم موجهًا الحديث إلى خطيبته التي عاد إليها في إجازة من وحدته العسكرية

- الناس بقت عصبية قوي، شفتي زعلانة إزاي.

■■■

ألقت مها نظرة أخيرة على منزل نديم، تذكرت أنه يقع في نفس الشارع الذي قادت فيه سيارتها لسنوات أثناء عودتها من معهدها، وقبل أن تركب سيارتها اقترب منها حارس المنزل المجاور هاتفًا:

- حضرتك يا مدام كنتي جاية للأستاذ الكفيف اللي في الشقة اللي في الدور الأول.

انزعجت مها من رائحة الحارس فأجابت وهي تغلق باب سيارتها دون اهتمام:

- مفيش حد في الشقة.

- ولكن حضرتك أنا شايفه داخل البيت ومخرجش منه من ساعتها.

أجبـرت الجملة الأخيرة مها على أن تبطل محرك سـيارتها الذي كانت قد أدارته بالفعل.

- لكن إنت بتقول كفيف.

- أيوه يا ست هانم أنا اتكلمت معاه امبارح ومكنتش أعرفه.

غادرت مها سيارتها وقالت للحارس:

- طيـب تعالـى معايا ليكـون حصله حاجة، بس هو مـش كفيف، طيب ممكن توصفهولي.

- شـاب زي الفل كده، مليان شـوية، وشـعره فاتـح، ولونه خمري بس عصبي قوي.

ارتفع وجيب دقات قلب مها ومدت الخطا تجاه المنزل وهي تهمس:

- بس هو مش كفيف.

وعند الباب تركت الرجل يدقه بكل ما أوتي من قوة، واكتفت بمحاولة الاتصال بهاتف نديم من جديد.

وبعد أن سـمعت الرسـالة المعتادة بأن الهاتف مغلق، اكتفت بالإشـارة برأسـها للحارس، عندما طلب منها الإذن بكسـر البـاب، وعندما نجح في ذلـك، أسـرعت في اتجاه الجسـد الملقى علـى الأرض والـذي تنزف منه الدماء صارخة بعد أن تأكدت من شخصيته.

- اطلب لنا الإسعاف فورًا.

■■■

لـم يسـتغرق نديم وقتًا طويلًا حتـى يفيق، وانصرف المسـعفون بعد أن ضمدوا ذلك الجرح الجديد في جبهته، جلس ممسـكًا برأسـه على مقعده المفضل، ومها جالسة على الأرض أمامه.

تناسى نديم جرحه وسألها:

- إنتي مين.

- نديم إنت مش فاكرني، أنا مها ، إيه اللي حصلك.

- أثار الرد غضب نديم فصرخ:

أنا مش فاكر حاجة خالص، أنا مش فاكر أنا مين.

ألجمـت مهـا المفاجـأة فلم تسـتطع منع يدها أن تتحسـس وجـه نديم الحزين مخفية ذلك الهلع في عيونها رغم أنها تدرك أنه لن يراه.

- مهما كان اللي حصل، لو مش فاكر ميهمكش، حنلاقيك سوا.

- طيب قوليلي أنا مين.

- إنت نديم جودت الروائي والصحفي.

ابتسم نديم ابتسامة ساخرة:

- دي افتكرتها ، قولي حاجة جديدة.

نهضت مها من جلستها وتأملت الشقة جيدًا.

- أنا معرفش عنك كتير، بس أعرف نفسي، وطبقًا لأسطورتك الخاصة، حنلاقي حل.

اعتدل نديم في مقعده محاولًا تذكر الصوت وكذلك الأسطورة ثم قال:

- أسطورة إيه؟

أفلتت من مها ضحكة رغمًا عنها ثم أجابت:

- أسطورة النصين اللي بيدوروا على بعض.

يبدو على نديم عدم الفهم لكنه يجيب مستفهما.

- هو إنتي الست اللي بتجيلي في الحلم؟

- حلم إيه؟

- إنتي شعرك بني، قصير ودايمًا متمرد، عينيكي واسعة، إنتي شكل نفرتيتي صح؟

أمسكت مها رغمًا عنها بخصلات شعرها وكأنها تطمئن على لونه البني وقالت:

- ايوه انا شعري بني، وقصير ومتمرد ده لفظ لطيف منك قصدك منكوش، بس مقولتليش حلم إيه؟

ابتسم نديم متناسيًا جرحه وغضبه ، متذكرًا وجهها الذي مر في خياله.

- على فكرة انتي ابتسامتك حلوة قوي.

■■■

لـم يـدركا مـا مر مـن الوقـت إلا بارتفـاع رنين هاتـف مهـا المحمول، صرخت في دهشة:

– يانهار الساعة بقت 10 بالليل، مربية الولد بتكلمني، أنا لازم اروح.

ابتسم نديم لصرختها، الآن صار يعرف بعض جوانب حياته أكثر، يشغله الآن أن يعـرف السـبب في زوال تلك الذاكرة، وأيـن اختفى كل من حوله، لكنه مطمئن، وجودها بجواره جعله مطمئنًّا، بها سيعرف نفسه.

أزعـج مهـا صمتـه وخشـيت أن يغضبـه رحيلهـا فاقتربت منه ممسـكة بوجهه، تتحسس ملامحه وكأنها هي من فقدت البصر.

– نديم ممكن اروح ولا انت حتزعل؟

مد نديم يده ليلمس وجه مها، تحسس ملامحها كمن يخطو على أرض الوطن بعد غياب، داعب شعرها المتشابك قبل أن يجيب:

– لا طبعًا مش زعلان، بس متتأخريش عليًّا بكرة.

انحنـت مهـا لتقبله فـي جبهته قبـل أن ترحل، ولكنها قبـل أن تصل إلى الباب عادت مرة أخرى لتخرج هاتفًا محمولًا من حقيبتها قائلة:

– ده رقم تاني خليه معاك علشان اعرف اطمن عليك.

تحسس نديم الهاتف، وزادت ابتسامته اتساعًا لتنتقل إلى وجه مها التي أدركت ما يريده، فوضعت إصبعه على زر قبول المكالمة.

– دوس هنا يا سيدي لما ارنلك، متخافش الرقم ده مش مع حد خالص غير اتنين اصحابي ، حقوللهم ميتكلموش عليه.

استنشق نديم نفسًا عميقًا ليتزود من رائحة مها قبل أن ترحل، وبمجرد أن أغلقت الباب خلفها، احتضن الهاتف مطلقًا زفيرًا طويلًا مودعًا معه كل الغضب الذي بداخله.

وفي الطريق كانت مها تفكر في الغد، ماذا تفعله ليعود نديم إلى نفسه، وقبل أن تصل إلى بيتها في الجهة الأخرى من القاهرة، كانت قد أجرت اتصالًا هاتفيًا بصديق، ليقترح عليها اسم طبيب و يعطيها رقم هاتفه، حتى تصطحبه لإجراء الكشف على نديم في اليوم التالي.

■■■

يتسلم الضابط الصغير حديث التخرج دباباته الأمريكية حديثة الصنع، يشعر بسعادة طاغية وهو يفك الأكياس عن المعدات بمعاونة الجنود وصف ضباط فصيلته الصغيرة، يتمم بنفسه على كل صغيرة وكبيرة، لدرجة أنه رسم تلك الأرقام التي تكتب على الدبابات بيده.

يجيب كلما سأله أحد جنوده سؤالًا عن الدبابة التي درسها جيدًا مستفيضًا في الشرح، وفتح آفاق أخرى ليتعلم الجميع، يعرف جيدًا أن احترامه كقائد سينبع من علمه، وحسن تصرفه.

يؤكد مع كل سؤال أن دقة إصابة هذه الدبابة في الرماية تصل إلى 98٪، وهو رقم مبهر في علم المدرعات، يقطع حديثه نداء من رقيب أول السرية الذي وقف في مواجهة أحد مدافع الدبابات.

أسرع نديم في الذهاب إليه مستفهمًا، أشار «الصف ضابط» إلى داخل

المدفع ، نظر نديم جيدًا ثم طالبه بأن يحضر جهازًا مخصوصًا لرؤية ماسورة مدفع الدبابة من الداخل.

وبعد تركيب الجهاز تبخرت سعادة نديم عندما وجد المدفع الجديد المغلف بطبقة لامعة من النيكل كروم مليئًا بالحفر، والتي تعني حسب دراسته أن المدفع قد تم استخدامه من قبل، وبعد عملية حسابية صغيرة تمكن من معرفة أن المدفع الذي يصل عمره إلى 1000 طلقة يضربها قد استهلك نصف عمره.

أسرع بصحبة رقيب أول السرية في المرور على بقية الدبابات ليكتشف نفس العيب في كل دبابة، أخبر قائده وهو يلهث وقبل أن يستريح بما اكتشفه.

وقبل أن ينتهي الليل كانت الإدارة قد أبلغت بالخبر، وفي الصباح حضرت لجنة لتقوم بمعاينة مدافع الدبابات.

حرص نديم على أن يصطحبها لكل دبابة غاضبًا لاعنًا الأمريكيين الذين يخدعوننا بتصدير سلاح مستعمل إلينا على أنه جديد.

غادرت اللجنة ونديم رغم حزنه فخور بأنه قد كشف اللعبة، وبأنه لابد للقيادة من أن تتخذ قرارًا حاسمًا.

مرت الأيام والأسابيع دون أي جديد، إلى أن استدعى قائد الكتيبة «نديم» إلى مكتبه مساء ليلة صيفية حارة

– نديم إنت حتنزل أجازة بكرة لمدة 15 يوم.

أدهش نديم القرار خاصة أنه لم يمض عليه سوى ثلاثة أيام منذ عودته من آخر إجازة، كما أن المدة المطروحة كبيرة بدرجة مثيرة للدهشة، أدى التحية وانصرف.

وعندما عاد من إجازته اكتشف أن الكتيبة قد وقعت على استلام الدبابات بحالتها، وبأنه غير مسموح له أن يثير هذا الموضوع بتاتًا مع أي جهة.

أعماه الغضب، اتهم الجميع أثناء تناول وجبة الغداء بالخيانة، لينهره القائد ويحيله للتحقيق بتهمة التحدث بشكل غير لائق مع ضابطه الأعلى.

وفي التحقيق لم يدون الضابط المحقق كل ما ذكره نديم عن مشكلة مدافع الدبابات ودون فقط اعترافه باتهام قادته بالخيانة، وقبل أن يرحل اكتفى بالتوقيع على جزاء شديد، قد يدمر مستقبله العسكري بعد عرضه على مكتب القائد الأعلى.

وعند عودته إلى غرفته في وحدته، غرق في فراشه الذي تحول إلى ساحة للدموع، مع تساؤل واحد يتردد بشدة:

- أنا بعمل إيه هنا، ده مش مكاني.

■■■

لم يستطع نديم النوم قبل أن يردد مكتسباته الجديدة، الآن صار يعرف جيدًا أنه ترك الخدمة في القوات المسلحة بمحض إرادته، بعد أن فقد رغبته في الاستمرار فيها، وفقد طموحه أيضًا، صار يعرف أنه عمل صحفيًّا

في جريدة ما لا يتذكر اسـمها الآن، وأنه أصدر روايتين، حقق من خلالهما نجاحًا ما، وأن الأدب هو طموحه الشخصي الذي يحلم بالوصول فيه إلى غايته القصوى.

عـرف اليوم أيضًا أنه كان متزوجًا وأن لديه ولدًا وبنتًا، ولكنه انفصل عن زوجته منذ ستة شهور، وأن البيت الذي يقيم فيه الآن هو منزل الأسرة الذي شهد مولده، وأنه منذ أيام قليلة كان يعيش في منزل آخر في ضاحية أخرى.

عرف أيضًا أن مها صديقة حميمة - كما أخبرته هي - ولكنه لا يصدقها، خاصة بعد أن تحدثت عن أسطورة النصفين التي لا يتذكرها، ولكنها أخبرته بكل هذا .

توقـف نديـم لحظيًّـا وكـرر مـرة أخـرى كلمـة صديقتـه ثم تسـاءل في تعجب.

- امال فين باقي أصحابي، مها قالتلي إن عندي أصحابًا كثيرين.

اختطفـه النوم مـن السـؤال، وإن بقيت شـفتاه تـرددان دون وعي كلمة صديق.

■■■

وجـوه بـلا ملامح هي كل مـا مر بحلمه وهو نائم، أسـماء تـتردد فتزيد الوجـوه غربـة، ينقبض قلبه، عشـرات الوجوه تأبى أن تسـتقر، تأتيه فرادى وتسحبها دوامة كبيرة فتختفي، لتحل محلها وجوه أخرى.

يجذبـه حضـور وجـه أحمد عـادل المتكرر، يعلـم أنه صديـق الطفولة

المقرب، يخيفه للغاية أنه على العكس من الجميع، ظهر في البداية بملامحه كاملة قبل أن تذوب تلك الملامح مخلفة وجهًا فارغًا، يجذبه أحمد من تلك الدوامة، يختلي تمامًا بالحلم، يراهما معًا مراهقين يدخنان أول سجائرهما على محطة الحافلات العامة ليلًا، يختبئان من جارهما الذي يبلغ عنهما ، يتلقيان التقريع، وينصح والد كل منهما الآخر بالابتعاد عن صاحبه حتى لا يفسده.

يراهما يشاهدان خلسة أحد أفلام «البورنو»، ويتنافسان على عدد مرات العادة السرية، يكذب كلاهما، ويكتشفان كذبهما ويضحكان، يتعجب نديم من إمكانية وجه بلا ملامح على الضحك.

يراهما يلعبان الكرة والشطرنج والطاولة، يرتادان السينمات، ويسافران معًا إلى شواطئ مختلفة، يرقص كلاهما في فرح الآخر، يراه مرة أخرى في حادثة السيارة، يراه يبتعد فيحاول هو الاقتراب، يراه يستعد لركوب طائرة تطير به إلى الدوامة مرة أخرى.

تتجدد الوجوه وتختفي تباعًا ليبقى في النهاية ثلاثة وجوه، نبتت لبعضها ملامح، وإن كان أحدها قارب الاكتمال.

يتأمل ذلك الوجه البيضاوي ذا الذقن الخفيف والعوينات الصغيرة وتلك البشرة السمراء التي تشبه دفء المقاهي في حضرة الأصدقاء، تجذبه ابتسامة حنون ملأت الوجه نورًا، يتذكر للمرة الأولى اسمه، الذي غاب عندما حضرت الملامح، وكأن الحلم يعانده، تذكر أن هذا وجه «إمام» صديقه.

الوجه الآخر لم يكتمل بعد، تميزه فقط، عيون خضراء وذقن بني، الاسم مازال غائبًا، لكنه يرمق في تلك العيون ذلك البريق الخاص بالأصدقاء، تلك النظرة التي تؤمن بالتواطؤ، والذي يبقى حليفًا دائمًا في الصداقة، يعرفه الآن جيدًا إنه وجه «شرف».

الوجه الأخير لشاب أصغر سنًّا، لم يجد ما يدله على هذا سوى معرفة زرعها الحلم نفسه بداخله، هذه المرة نبت الفم قبل كل الملامح، والفم لا يرحب أبدًا بالصمت، يتكلم كثيرًا، لا يلتفت إليه نديم ولكنه الآن يعرفه، إنه «علاء».

يستيقظ نديم بهدوء للمرة الأولى منذ بداية أزمته، يتحسس بيده كوب الماء بجواره، يقذف ما فيه إلى جوفه ويقول:

- إمام، شرف، علاء.... النهاردة يوم عظيم، بس انتم فين يا رجالة؟

■■■

جمعتهم تلك الليلة الشتوية الباردة في مقهاهم السري أمام البنك المركزي في وسط المدينة، ذلك المقهى الذي لا يتجاوز عدد رواده في الأيام العادية عشرة أفراد، طلب كل منهم مشروبه الساخن المفضل ما بين الشاي بالنعناع والقهوة وطلب نديم علبة «بيبسي» وكوبًا من الثلج، ابتسم الجميع وأشار إمام إلى حقيبة الحاسب المحمول وقال:

- إنت معاك تموين؟

هز نديم رأسه في سعادة وقال:

- جيب السبع ميخلاش.

ومـع وصول الطلبات، بدأ نديم يستعين بجسـد عـلاء لصب كأس من الويسكي المخلـوط بالبيبسـي دون أن يـراه أحد، بينما انهمك شـرف في الحديث طويلًا عن مشروع إنشاء راديو أون لاين.

ومع وصـول المزيد من الأصدقاء للجلوس حول المائدة البلاستيكية البيضاء، ومناقشـة مشـروع الراديو، تبادل الجميع تلك الوريقات التي دون فيها الأصدقاء الأربعة هيكل الراديو وطريقة عمله، وأقسامه وهدفه.

اقترح البعض العديد من التعديلات وتناقشـوا فيها واتفقوا جميعًا على الشـكل النهائـي، وبقى أن يتفقوا علـى تحمل كل فرد نصيبـه من التمويل، لتأجير شقة وشراء المعدات اللازمة لإنشاء استوديو فيها.

اقترح أحدهم أن يكون شـرف المسئول عن تأجير الشقة، خاصة بعدما توصلوا لسمسارة لديها اختيارات تسمح بها إمكانياتهم المادية، وأيد علاء الفكرة قائلًا:

- شرف بيعرف يقنع الستات كويس.

ابتسم الجميع، بينما ضحك شرف بصوت عالٍ وقال مخاطبًا علاء:

- إنت ندل.

أجرى شـرف اتصالاته وحصل على موعد بلقاء السمسارة في المكتب

لمعاينة الشقق على الطبيعة، وانهمك الجميع في البحث عن اسم لهذا الراديو الوليد.

وفي الطريق للإسماعيلية التي قرروا السفر إليها فجأة، كما اعتادوا دائمًا في سيارة نديم الزرقاء الصغيرة، كان الرباعي قد استقر على اسم «درب شكمبة» كاسم نهائي للراديو

وأمام شواية اللحم وكم هائل من الفروع التي جمعها علاء من حديقة منزل جده الريفي، أشعل إمام النار ، بينما جلس علاء مسندًا ظهره على جدار الحديقة وبين يديه طبق مليء بالتبغ وقطعة من الحشيش وورق البفرة للف سيجارتين لزوم الليلة.

ومع دخان الحشيش وبعض قطع اللحم التي لم تنضج جيدًا على النار وكئوس متعددة من الويسكي المصري المخلوط بالبيبسي، قضى الأصدقاء ليلتهم يغنون ويحلمون معًا بمشروعهم المشترك.

ومع وصول النار لمرحلة الرماد، كان الرفاق يركبون السيارة استعدادًا للعودة مع صوت أذان فجر يوم جديد.

■■■

بمجرد انتهاء أذان العشاء صلى الأب في غرفته، بينما ظل نديم يلعب بتلك الكرة الزجاجية الموضوعة على مكتب الوالد.

أنهى والده صلاته ثم أشار لطفله الذي بلغ العاشرة مناديًا:

- إنت مبتصليش ليه يانديم؟

- هو أنا لازم اصلي يا بابا؟

ابتسم الأب الجالس على سجادة الصلاة واحتضن الطفل بحنان وقال:

- كلنا لازم نصلي علشان ربنا ميزعلش مننا ولا النبي.

تخلص نديم من حضن الأب وقال في حماس:

- أنا عايز أبقى نبي.

قهقه الأب وارتفعت ضحكته وهو ينهض ويلملم سجادة الصلاة وسأل نديم:

- نبي زي مين؟

- زي بيبو.

نبتت علامات الدهشة على وجه الأب الذي انحنى واقترب بوجهه من الصغير.

- بيبو مين؟

- الكابتن محمود الخطيب، إنت مشفتوش يا بابا هو بيجيب الجون في كوتوكو في النهائي.

ابتسـم الأب وجذب طفله ليجلسـه على رجله على الأريكة وهو يقول بهدوء:

- بص يانديم الخطيب ده لعيب كورة عظيم، بس النبي حاجة تانية، النبي أعظم إنسان في البشرية، ربنا بعته علشان يهدينا ويعرفنا الإسلام.

ابتسم نديم ببراءة وقال:

- خلاص أنا لما أكبر حابقى نبي لعيب كورة عظيم.

■■■

تدرك مها أزمتها منذ أن عادت لتعيش في القاهرة وحدها، وتدرك أن الوحدة صارت قدرًا لن يمكنها الفرار منه، حاولت اجتيازها بعلاقة حب لم تجن منها سوى الألم، أثار ضيقها دخولها في علاقة أخرى بمجرد نهاية الأولى، أثار ضيقها أكثر أنها لم تختر، في كلتا المرتين، اختارها الطرف الآخر، ففرت إليه من الوحدة.

لكنها مصممة على النجاح هذه المرة، لن تعود إلى ذلك الصمت الموحش مرة أخرى، لن تحمل همًّا بأن تعود إلى المنزل لتحدث نفسها في المرآة، لن تشتاق لسماع صوتها، الذي يغيب لساعات، وحدها في المنزل.

أدارت إحدى أغنياتها المفضلة ورقصت على أنغامها رقصة «الفلامنكو»، ابتسمت وقررت وهي تنهي دراستها أن تتزوج من حبيبها، أن تلد منه طفلًا ، أن تصير أمًّا.

وحين أنهت رقصتها، كانت قد تزوجت وتنتظر ميلاد طفلها الذي حلمت به، فتوقفت عن الرقص نهائيًا.

أمـا في صباح اليـوم الذي واعدت فيه «نديم» بعـد أن وجدته أخيرًا، فقد وجدت نفسها ترقص رقصتها المفضلة والتي لـم ترقصها منذ أربع سنوات.

ابتسـمت وهي تلهث من أثر الرقص، ألقت نظرة على السـاعة المعلقة على الحائط، ثم أسـرعت في اتجاه الحمام لترتدي ملابسها، توقفت قليلًا أمـام دولابهـا قبـل أن تمد يدهـا لتخرج حقيبـة بلاسـتيكية لأحد محلات الملابـس الداخليـة الشـهيرة، لتخـرج «كلـوت» وردي اللون من السـاتان لترتديه وتكمل ملابسها لتغادر إلى مصر الجديدة.

■■■

لم يضيعا وقتًا طويلًا في إجراء الأشـعات والتحاليل التي طلبها الطبيب تليفونيًّا بعد أن عرف بحالة نديم، فقط تأكدا من أن الحجز عند الطبيب يلي موعد استلام الأشعة والتحاليل.

عادا للمنزل، ليتناولا معًا وجبة الغداء، جلست بجواره تحاول إطعامه، إلا أنه أوقف يدها بغضب، أفزعها غضبه، فتساءلت:

- مالك يا نديم؟

- أنـا مش عايـز اروح لدكاترة، ولا عايز اتغدى، أنا عايز أعرف راسـي من رجليَّا.

- حتعرف صدقني حتعرف، بس نطمن عليك الأول.

- نطمـن علـى إيه، ما أنا زي القرد أهـو، الأهـم أعرف فين ولادي، فين أخواتي.

ربتت مها على كتف نديم وقالت وهي تغادر منضدة الطعام:

- طيب ياريت تاكل على ما ابص في الشقة يمكن ألاقي حاجة تدلني.

أشاح بوجهه غاضبًا كطفل صغير يدب برجليه على الأرض معلنًا غضبه.

تأملت مها الشقة جيدًا لفت نظرها تلك الصورة الموضوعة في إطار والمعلقة في صالون المنزل لوالد نديم، يحمل ذات النظرة في عينيه، والتي تتذكرها منذ أول لقاء جمعهما.

تساءلت داخلها عن كيفية حركة نديم وسط كل هذا الأثاث الذي يملأ بهو المنزل، صالون كلاسيكي ذهبي اللون من الحجم الكبير، تجاوره منضدة كبيرة للطعام يلتف من حولها ثمانية مقاعد ضخمة، و «أنتريه» أسيوطي في صالة المنزل كانت تجلس على أحد مقاعده بجوار نديم منذ لحظات.

اجتازت إلى ذلك الممر المؤدي إلى مطبخ المنزل وحمامه لتجد غرفة نوم، معلقًا بها صورة لنديم يرتدي زي الكلية الحربية وبجوارها صورة لرجل يشبه ممثلي الأربعينيات، تجذبها مكتبة قديمة في الحائط المواجه، فتبحث بداخلها عن أي أوراق، يدهشها اختلاط كتب علم الفلك، بالأدب، ببعض مجلات الأطفال.

تقودها قدماها إلى الغرفة التي ينام فيها نديم، تجذبها رائحة العطر المسكوب، وتلك البقعة التي تركها على سجادة الأرضية، تفتح الدولاب لتجد البدلة العسكرية.

تفتح أحد أدراج «الكومود» على الجانب الأيمن من الفراش الذي بقي أثر نوم نديم عليه، تجد بعض المفاتيح وشرائط الأدوية وبعض الورق المطوي، تغلق الدرج وتعود بالورق إلى نديم، بعد أن تمر مرورًا سريعًا على الغرف الأخرى التي يظهر للوهلة الأولى أنها لم تستخدم منذ سنوات.

■■■

لم يسعفهما الوقت لقراءة محتوى الأوراق، ولكنها أمام غضب نديم اضطرت إلى أن تصطحبها معها في السيارة، لتقرأ له ما تيسر منها.

استلمت التحاليل والأشعة، وعادت إلى السيارة، لتجده ممسكًا بالأوراق، ناولها إحداها فور ركوبها وقال لها:

- اقريلي دي.

ابتسمت مها، وأدركت بالنظر إلى ساعتها أن أمامها ما يقرب من نصف ساعة على موعد الطبيب، أمسكت بالورقة وتطلعت فيها وقالت:

- ده جواب منك لابنك محمد.

ظهرت اللهفة على وجه نديم ، واعتصر بقية الأوراق رغمًا عنه وقال:

- اقريه بسرعة والنبي.

عادت مها بظهرها للخلف، وأسندت رأسها على مسند مقعد السيارة وارتفع صوتها قليلًا لتقرأ.

■■■

نوستالجيا

إلى محمد

لـكل عائلـة مـا يميزها، وفـى عائلتنـا نتوارث جيـلًا بعد جيـل تقديس آبائنـا حتى الألوهية، وكشـرقيين نخاف الإله كثيـرًا ونحترمه ونهبه الجلال اللازم لاستكمال الهيئة الإلهية، ثم نهرع لأحضان الأمهات فى حالة عشق أسطورية .

لذلك قررت وكإله أن أشاطرك بعضًا من نفسي كل عام، لتعرف أن أباك مجرد إنسـان، الأسـود فيه كالأبيض إن لم يكن أكثر، انكسـاراته بعض من ملامحه، وأخطاؤه لون بشـرته، وأنه بلا هالة أو قداسـة، فقط هو منذ البدء وحتى الآن يحاول.. فقط يحاول .

لذلك كان البدء في تلك العائلة المكونة من مدرس الجامعة العائد لتوِّه من بعثته فى الاتحاد السوفيتي، مليئًا بالحنق والغضب تمامًا ككل العائدين، و زوجته - أمِّي - ابنة القرية التي زرعها زوجها في القاهرة فأثمرت ومدت جذورهـا في الأرض حتى طاول حنانها السـماء، تركها مع ثمراتها الثلاث ثم عاد ليجدها أشد قوة وأكثر تحملًا لغربتها الخاصة وأوفر ظلًّا .

اسـتعد الجميع لمغادرة المنزل القديم في شـبرا والانتقال لآخر بجوار الجامعـة التي يدرس بها الأب، وبذرتي أنـا - أباك - تنبت في هدوء داخل رحـم الأم الطيبة، الأب العائـد غاضب من تلك البذرة، لا يتمناها ويطالب بإجهاضها، والزوجة الأم كعادتها تنفذ أوامره دون نقاش، مستغلة ترتيبات الانتقـال حتى تسـاعدها على ذلك، الصغـار الثلاثة آمال، أمجـد، و إيمان لاهون عن كل هذا بإجازة صيف جديد .

- كان أبوك عنيدًا حتى الكفر.

ستسمع تلك العبارة كثيرًا فابتسم عندما تسمعها، لأن عند أبيك ما جعله يستمر داخل الرحم، رافضًا الإجهاض، متمسكًا بالحياة، ولولا رحمة ربك ما كان ولا كنت .

وأخيرًا في ذلك الشتاء السعيد، والكل مشغول بمتابعة أخبار حرب أكتوبر في سيناء، وتتبع أخبار المفاوضات، العائلة مشغولة باستقبال ضيفها الجديد، الأطفال ينتظرون أمام شاشة التلفاز بصحبة شادية وشكري سرحان في فيلم السهرة مساء الأربعاء، الكل يترقب صرخة تعلن الميلاد .

ضئيلًا أتيت الحياة، صامتًا - كعادتي دائمًا في البدايات- ثم صارخًا ومرحبًا بتلك الحياة التي عشقتها طيلة عمري بعد ذلك.

وما بين سعادة وأخرى واختلاف على تسمية الصغير، ما بين «عبدالله» كما يريد الصغار كنت « نديم» كما أراد الأب، الذي نسي فى لحظات كل ما كان، سكن الصغير الذي يمتص ملابسه فى جوع قلب الأب .

شعور مختلف أن يكون الفارق بينك وبين إخوتك كبيرًا؛ لأنى وجدت نفسي محاطًا بوالدين وثلاث أمهات، خاصة عندما سافر الأب من جديد بحثًا عن رزقه في الخليج تاركًا الصغير بسنواته الثلاث يتحسس طريقه في معرفة أساسيات الدنيا التي تتعلمها أنت الآن.

وفي حمى سور الغربة البارد، وبين جدران المنزل، في صحبة كل هؤلاء الآباء والأمهات تكونت شخصية الصغير.

أطلت عليك هذا العام وأنت لم تحسن القراءة بعد.

أعدك في العام القادم عندما تحسن الكلام - إن كان في العمر بقية - أن أكمل لك.

حب أبيك وكل كيانه.

نديم.

■■■

أجهش نديم بالبكاء عقب نهاية مها من قراءة الخطاب، لم يتمكن من كبت كل هذا الحنين الذي اعتصر قلبه بقبضته دون رحمة، تذكر فجأة كل ملامح الصغير، تذكر جيدًا كيف يشبهه، كيف كان الكل يعتبرونه نموذجًا مصغرًا منه، حتى إنهم كان يطلقون عليه لقب «ترانزستور»، تذكر لعبهم معًا، وتذكر انتظار الصغير عودته كل مساء محملًا بالحلويات، وكيف كان يخاصمه ولا يرحمه عندما يعود بدونها.

فتح باب السيارة مغادرًا إياها سائرًا دون هدى، أسرعت مها خلفه محاولة إعادته مرة أخرى، لكنه صرخ في غضب:

- أنا عايز اروح لمحمد ، سيبيني أرجوكي.

أوقفها صراخه للحظات، إلا أن عجزه عن عبور الطريق، وجلوسه على الرصيف أعاده إليها مرة أخرى، جلست بجواره، أمسكت بذقنه بعد أن مررت يدها على خده بحنان لتمسح دموعه، قالت بصوت خافت:

- حتلاقي محمد وكل اللي واحشينك، لما الدكتور يعالجك، وترجعلك ذاكرتك وبصرك، صدقني يا نديم، لازم نروح للدكتور.

تبعها في هدوء وهي تعود لسيارتها ممسكة يده دون أدنى مقاومة، ركب السيارة ووضع بقية الأوراق بجواره، كمن يؤجل مهمة إلى موعد آخر، ابتسمت هي في حنان وأدارت محرك سيارتها وانطلقت لتلحق بموعد الطبيب.

■■■

لم تتمكن سنوات عمره الإحدى عشرة من أن تدرك رحيل الأم، فقط عاد من القاهرة إلى قريته الصغيرة في أحضان الدلتا ليحضر مراسم الدفن والعزاء، كان ينتظر نتيجة مدرسته ليعود لقضاء الصيف فيها، ولكن وفاة الأم المفاجئة أعادته دون أي انتظار.

لم يرها، وتحاشى الكبار هذا الموقف الصعب، لكنه رأى في حديقة المنزل ما أثار رعبه، خاصة النساء اللاتي ارتدين السواد، وجلسن على الأرض يلطمن الخدود، ويضعن الطين على رءوسهن، وهن يصدرن عواء كالذئاب.

ميز بحكم صغر سنه في هذا العواء بعض السباب، وتعجب أن تسب النساء الرب لأنه أخذ والدته، التي ظلت طيلة عمرها تخبره أنها تحب الرب، وأن الله يحبنا.

أغضبه التصرف كثيرًا، فانقلب إلى مكان تجمع الرجال، تصفح الوجوه المتجهمة، رأى للمرة الأولى وجه أبيه أسود، وعيونه حمراء منتفخة من أثر البكاء، تذكر مقولة والدته وهي تصف والده دائمًا:

- أبوك يا نديم بدر منور، قمر يا واد.

تساءل في حزن، هل هناك قمر أسود اللون؟

تعالى إيقاع الحركة وتسارع، لتغادر «الخشبة» المنزل بعد الغسل في طريقها إلى مقابر الأسرة، حاول تجاهل النسوة اللاتي يلقين حجارة في اتجاه النساء، ومضى رافعًا إصبعه للسماء مقلدًا سلوك الكبار.

وفي نهاية اليوم، تسلل إلى غرفة والده، ارتمى بين أحضانه، لتتساقط دموع الوالد على وجه صبي لم يعرف البكاء حزنًا حتى الآن فقال:

متعيطش يا بابا، إنت مش بتحب اللي بيعيطوا، وبعدين لما ماما ترجع تلاقيك بتعيط، مش كده حتزعل منك.

■■■

لم يستغرق الطبيب وقتًا طويلًا في إجراءات الكشف على نديم قبل أن يخبرهم بعد أن اطلع على نتائج الأشعة والتحاليل أن ليس هناك سبب عضوي واحد يمنعه من استعادة بصره أو ذاكرته، وأنه في الأغلب قد تعرض لموقف عصيب أثر على حالته النفسية ليصل إلى ما وصل إليه.

ثم طلب من مها مغادرة حجرة الكشف لينفرد بنديم الذي عاد ليجلس على مقعد بجوار مكتب الطبيب، غادرت مها الغرفة بعد أن ضغطت على يد نديم، وترك الطبيب مقعده خلف المكتب، ليجلس في مواجهة مريضه.

أمسك برأسه في حدة وقال بصوت عال:

- فوق لنفسك، إنت عامل مش شايف، لازم تغلب عمى روحك ده، محدش حيقدر يساعدك غيرك.

خلص نديم رأسه من يدي الطبيب وقال في ضيق:

- أنا عايز أشوف محمد ابني.

- يبقى لازم تفتح علشان تشوفه، قبل ما يشوفك بالمنظر ده.

ثم ارتفع صوته أكثر فأكثر وهو يقترب من أذن نديم.

- لازم تفتح، لازم تفتح، لازم تفتح.

■■■

تعاونت مها مع ممرض العيادة في إعادة نديم للسيارة، حيث بدا مرهقًا للغاية، يجر قدميه جرًّا، كمن خاض للتوّ سباق ماراثون طويل، ودون أن تلفظ أي كلمة اصطحبته إلى منزله، وبعد أن اطمأنت على وجوده في الفراش، سألته برقة:

- عندك فكرة اللاب توب بتاعك فين؟

أشاح نديم بوجهه غضبًا دون أن يرد، فقالت:

- لو دخلنا على بروفايلك على الفيس بوك ممكن نوصل لحاجات كتير.

لم يبد على نديم الاهتمام بما قالت، ففتحت هاتفها المحمول واستعرضت تلك الصفحة التي تحمل اسمه على الموقع الاجتماعي، وكتبت عليها:

«نديم يحتاج إلى مساعدتكم، من يرغب في ذلك عليه الاتصال بالرقم التالي».

وكتبت رقم هاتفها المحمول ثم أغلقت الهاتف.

وأخرجت ورقة أخرى من حقيبتها وقالت له:

- تحب أقرالك ورقة تانية من الورق.

أجاب باهتمام:

- ياريت.

- ده يا سيدي مشروع روايتك اللي كنت عايز تشتغل عليه، إنت كاتب فيه إنك عايز تعمل رواية خيالية، يتقابل فيها سيدنا الحسين إمام الثائرين زي ما انت كاتب مع جيفارا، مع كل ثائر حر في التاريخ علشان يطهروا التاريخ من كل الزيف اللي فيه، ومسميها «العشرة الطيبة».

قاطعها نديم قائلًا:

- مش مهم خالص، ده مش مهم.

أخرجت مها ورقة أخرى وقرأت منها «حدوتة» كتبها يومًا نديم لطفلة، وقرأها لها في الهاتف من قبل لتنام

- دي بقى يا سيدي حدوتة «الفار زنفل».

وانطلقت في روايتها دون أن تنتظر منه ردًّا، وصوته حين قرأها لها منذ شهور يتردد في ذاكرتها، مما جعل قلبها ينتفض، حتى إنها رفعت صوتها خوفًا من أن يسمع هو صوت قلبها.

وقبـل أن تنهيهـا كان نديـم قد غـرق في النـوم وارتفع صـوت غطيطه، فاطمأنـت علـى غطائـه وانصرفت في هـدوء لتعـود إلى منزلهـا وكلمات الطبيب ترن في أذنيها:

- لـو ما اسـتردش بصـره لازم تعرضيـه على طبيب نفسـي، أنا حاولت أفوقه بس ده مش تخصصي، علاجي مش حيكون ليه نتيجة معاه.

■■■



يجلس نديم في شرفة منزله محتضنًا سيجارته، محاولًا الاستمتاع بفراغ لم يتح له منذ أسابيع طويلة، وكعادته دائمًا ودون استئذان، يقتحم الصغير وحدته ويطالبه باحتلال مكانه الأثير على رجله، يحمله دون أي مناقشة، يشير الصغير إلى القمر في شوق

- بابا أنا مش بعرف ألمس القمر .... انت بتعرف؟

يبتسم للمرة الأولى ويقول:

- محدش بيعرف يلمس القمر يا محمد.

يجيبه الصغير في حسم مقاطعًا إياه:

- لما نركب طيارة أكيد حنعرف.

يكتم نديم الرد الحقيقي مع أنفاس سيجارته ويجيب محاولًا إنهاء الحوار:

- آه لما نبقى نركب الطيارة بقى.

يستمر الصغير في الحديث محطِّمًا أمل الأب في إنهائه وهو يشير إلى تلك الطائرة المرسومة على صدره .

- بس احنا عندنا طيارة أهو بس راكنينيها هنا ليه.

يجيب محاولًا إخفاء تلك الحيرة البادية على ملامحه:

- ركناها في الـ «تي شيرت» علشان محمد يبقى شكله حلو.

ينظر محمد بسنواته الثلاث لوالده باشمئزاز ويقول:

- يعني أنهي أحسن نلمس القمر ولا محمد يبقى شكله حلو.

■■■

تتسلل مها إلى غرفة الصغير الذي غرق في النوم، تمشي على أطراف أصابعها لتجلس على طرف فراشه، تبتسم عندما تطالع وجهه، تداعب بيدها تلك الخصلات النافرة من شعره على جبهته، يشعر بها فيتكلم نائمًا

- مامي أنا عايز حدوتة.

تضم مها قبضتها معنفة نفسها أنها أزعجت الصغير وتقول:

- حاضر يا نديم.

تبتسم لاسم صغيرها الذي يتشابه مع اسم الكبير، وتتذكر كيف أشار هو يومًا إلى أن هذا وحده علامة فارقة من الله على وجوده في حياتها قبل حتى أن تعرفه، تتمدد بجوار الصغير على الفراش وتروي دون تفكير حدوتة «الفار زنفل».

■■■

تستيقظ مها مبكرًا كعادتها، تنهي طقوسها الصباحية بكوب ضخم من القهوة، التي تعتبرها هدية اللـه إليها على الأرض، تنهي ارتداء ملابسها، وتصطحب معها كوبًا آخر لتشربه أثناء قيادة سيارتها.

تلتقي بوالدتها في أحد مقاهي حي الزمالك، تحتضنها الوالدة مهنئة إياها بالنجاح الكبير الذي حققه الفيلم، تجلس على المنضدة التي اختارتها الأم، وتطلب من النادل قهوتها الفرنسية المعتادة.

تنحني الأم لتخرج من حقيبتها مجموعة من الجرائد، وتضعها أمام مها في سعادة

- كل دي جرايد النقاد كاتبين فيها كلام هايل عن الفيلم.

تبتسم مها لاهتمام أمها، وتمسك بإحدى تلك الجرائد، متظاهرة بأنها لم تقرأ ما كتب فيها من قبل ، على الرغم من أنها قرأت كل حرف كتب عن الفيلم.

تشير الأم إلى مكان المقال، فتقرؤه مها وكأنها المرة الأولى، تبتسم لإشادة الناقد بكل تفاصيل العمل الذي يشير إلى أن السينما في مصر قد اكتسبت مخرجة واعدة.

تبتسم مها لوالدتها بعد نهاية المقال وتربت على يدها.

- ميرسي يا مامي.

- مبروك يا حبيبتي.

- طيب أنا حقولك على مفاجأة حلوة.

- إيه يا مها خير.

- الفيلم حيتعرض في مهرجان موسكو وفي مهرجان لندن، وكمان دبي.

- مبروك ياحبيبتي، أنا كنت دايمًا واثقة في نجاحك.

تبتسم مها لتلك الفرحة الطفولية في عين الأم، وتتساءل بعد ولادتها لنديم كيف تغيرت علاقتها بأمها، صارت تفهمها الآن أكثر، بل في الحقيقة صارت تحبها الآن أكثر.

تنهض عقب انتهاء قهوتها لتجمع الجرائد التي جمعتها والدتها لها وتضعها في حقيبتها، وتقبلها في جبهتها قبل أن تنصرف .

■■■

يستيقظ نديم من نومه على أثر وجه محمد الذي طالعه في تلك الذكرى الحلم، الذي لا يعرف حقيقة حدوثه، يزعجه جدًّا عدم قدرته على التفريق بين الحلم والذكرى، وكأن الحقيقة صارت بعضًا من الحلم.

يعتدل في فراشه، يتذكر مها، يبتسم رغمًا عن حزنه، يسعده أن له ذكريات معها الآن وإن كانت قليلة، يعود بظهره ليستند إلى ظهر الفراش، ويجتر في استمتاع رائحتها، صوتها، صوت ضحكتها، يكتشف للمرة الأولى أن لصوتها نغمًا موسيقيًا، تسكنه آلات النفخ و«فرقة حسب الله» حينما تكون

سعيدة، ويعزف فيه الناي منفردًا عند الحزن، بينما تعزف فيه فرقة كلاسيكية حين تتكلم عن الحاضر، ويقيم فيه تخت شرقي حين تتحدث عما تحبه.

يتمنى للمرة الأولى منذ وجدها أن تنقضي الساعات لتحضر، يؤكد لنفسه أيضًا أنها ستكون دليله للعودة، عيناه اللتان سيكتشف بهما الطريق، يختطفه النوم مرة أخرى من خواطره، فيستسلم له مبتسمًا لوجه صغيره الذي عاود احتلال ذاكرته.

■■■

جلس الصغير فوق ظهر أمه ليقنعها بالاستيقاظ، فتحت مها عينيها بصعوبة لتلتفت إليه وهي تبتسم، ثم تنهض سريعًا لتلتقطه قبل أن يسقط وتحتضنه.

تعاونه قبل أن تستعيد كامل يقظتها في ترتيب بعض قطع «البازل» على منضدة صغيرة بجوار الفراش، تعرف أن اليوم هو يوم إجازته الأسبوعية، فتقرر أن تتصل هاتفيًا بنديم لتبلغه أنها ستتأخر قليلًا لتقضي بعض الوقت مع الصغير.

يجذب انتباهها قبل الاتصال علامة على الهاتف تشير إلى أن لديها تعليقًا ما على «فيسبوك»، تستعرض صفحتها فتجد أسفل التعليق الذي تركته على صفحة نديم تعليقين، أحدهما لشخص يُدعى «شرف» وكتب فيه « يعني إيه»، أما التعليق الآخر فلشخص يدعى «علاء» وكتب فيه « لا حول ولا قوة إلا بالله».

أزعج التعليقان مها للغاية، أرسـلت إلى كلٍّ منهما رسالة على صندوق بريدهمـا تسـألهما بنفس الصيغـة « لو تعرف نديم بجد ، حـاول تكلمني»، غادرت فراشها لتستأنف نشاطها بصحبة الصغير الذى مضى يوزع ضحكاته في أركان منزله الجديد.

بينما تتصل هي، بعد أن غسلت وجهها، بنديم الذي ردَّ سريعًا:

– نديم صباح الخير.

– مها إزيك، انتي فين.

– أنا في بيتي، كنت عايز أقولك حتأخر شوية.

لم يجب نديم على جملتها الأخيرة، فأدركت أنه قد غضب.

– متزعلش أصل النهارده إجازة نديم الصغير ، وحقعد معاه شويه.

– مين نديم الصغير ؟

– ابني.

تتغير طريقة ومستوى صوت نديم لتبدو عليه السعادة.

– انتي ابنك اسمه نديم.

تبتسم مها.

– آه نديم يا سيدي.

– مها .. احنا نعرف بعض من قد إيه؟

- نعرف بعض من شهرين ونديم عنده أربع سنين.

- أنا آسف.

-متتأسفش يا أستاذ، دي علامة.

يغلقـان الهاتف دون كلمة وداع، تبتسـم مها وتجـري لتحتضن الصغير الذي يحاول الاختباء منها في سـعادة، بينما يـردد نديم على الطرف الآخر دون توقف

- علامة ، علامة ، علامة.

■■■

انصرف نديم من البيت غاضبًا، قاد سـيارته بعنف في شـوارع لا يعرفها رغبـة منـه في الهـدوء، محاولًا نسـيان الحـوار الأخير الـذي دار بينه وبين زوجته.

-عايزه إيه يا ندى.

- عايزاك تفوق من أوهامك، سبت الجيش زي المجانين، ورايح تكتب كلام محدش بيقراه غيرك، ومبيأكلش عيش، ولادك حياكلوا تراب يعني.

- متهيألي البيت مش ناقصه حاجة.

- البيت ناقصه راجل يشيل المسئولية، ناقصه أب.

- عيب ياندى اللي بتقوليه ده.

- كفاية إني شـايلة المسـئولية كلها، وانت بترمي القرشين أول كل شهر ومحدش بيشوفك، دور على شغلانة محترمة ليها مواعيد ودخل ثابت.

- إنتـي ليه مش عايزة تفهميني، أنا مبعرفش أعمل حاجة في حياتي غير الكتابة، وشغلانتي محترمة أكتر من أي شغلانة تانية.

- آه محترمـة جدًّا، لدرجة إن بتعدي عليك أيام معاكش حق السـجاير، بلا خيبة.

صرخ نديم بصوت عال:

- كفاية.

وانصرف وزوجته تردد دون توقف.

- عايش في كوكب تاني، بين أحلام وأوهام.

ضغط نديم مكابح سيارته لتتوقف فجأة وصرخ في غضب:

- مين الست دي، مستحيل تكون اللي اتجوزتها من 8 سنين.

■■■

كانت دقات الساعة الخامسة تستدعي النوم لعيون الطفل الصغير، ومع الموسـيقى المميزة لبرنامـج «حياتي» الذي تقدمه فايـزة واصف، ومقدمة اللحن الغنائي لأم كلثوم في إذاعتها عند محل البقالة الذي يطل عليه شباك غرفة المعيشة جميعها تشكل نوبة نوم، يعجز معها عن فتح عينيه.

بينمـا كانـت الأم مندمجة فـي متابعة المشـكلة التي يعرضهـا البرنامج .

والتـي كانت عـادة ما تدور حول خلاف زوجي أو خـلاف حول الميراث، تطالب طفلها بحل واجبه المدرسي.

وأسـفل أحد كراسـي «الأنتريه» الخضـراء والذي يتماشـى مع الحائط المدهـون باللون الأخضر الزرعـي والمنقوش باللون الزيتـي كان الصغير يقاوم نومه ويُنهي واجبه حالمًا بيوم الجمعة المقبل.

حيث وعدته والدته بعد شـهادة الشـهر الماضي، والـذي كان فيها أول مدرسته فـي الصف الثالـث الابتدائي، أن يخـرج مع إيمان إلـى «ويمبي» ليتناول غداءه يوم الجمعة.

أخرج نديم من جيبه تلك الورقة الصغيرة التي قطعها من جورنال الأمس لإعلان ويمبي، وركَّز جيدًا مع الحروف حتى ينجح في قراءتها جيدًا

- عرض ويمبي الجديد :ساندوتش بيف برجر دوبل تشيز + بطاطس مقلية + كوب بيبسي كولا بـ أربعة جنيهات ونصف...العرض لفترة محدودة.

أعاد الصغير قراءة الإعلان مرة أخرى بالعًا ريقه الذي جرى من الجوع، قبل أن يغلق كراسـة واجبه اليومي ساحبًا قصة من «المكتبة الخضراء» كان قد وضعها خصيصًا في المكان ذاته لمواصلة القراءة دون أن يلحظه أحد.

ومـع «القداحـة العجيبة» غاب الصغير تـاركًا العالم مـن حوله دون أن يدري بالوقت كما اعتاد كلما مارس القراءة.

■■■

عادت مها من رحلتها الأخيرة من الإسكندرية غاضبة، ذهبت لتحتفل

مع أبيها بجائزة مهرجان موسكو التي حصل عليها الفيلم ليفاجئها برغبته في الرحيل عن مصر.

تقبلت منذ اليوم الأول رغبته في الحياة منفردًا في الإسكندرية، تقبلت أيضًا رغبته في التقاعد والتفرغ للقراءة.. فقط القراءة، لدرجة أن منزله في المدينة الساحلية لا يحتوى إلا على غرفة نوم وباقي المنزل المكون من بهو وغرفتين عبارة عن مكتبات تغطي الحوائط.

خافت عليه من العزلة والوحدة ولكنها اطمأنت في زياراتها الدورية له عندما وجدت بعض المتعلقات النسائية منسية ومتناثرة هنا وهناك، داعبته مرة حين وجدت آثار «روج» على فم زجاجة نبيذ فرنسية، فارتفعت ضحكته المميزة لترن في أرجاء المنزل.

إلا أن رغبته الجديدة أثارت قلقها عليه، بعد ثماني سنوات من الحياة في الإسكندرية، وبعد أن اقترب من نهاية الستينيات من عمره لا تبدو رغبته في الهجرة سوى رغبة في الموت.

تعرف جيدًا منذ انفصال والديها أن ذلك كان أفضل لكليهما، وحرصت كل الحرص على أن يظل كلٌّ منهما بعيدًا عن الآخر في فك كل المتعلقات المتشابكة بينهما، لكنها الآن تخشى أن يرحل الوالد دون أن تراه أمها.

لم تعد إلى منزلها ولكنها اتجهت لمنزل والدتها لتصطحبها شاءت أم أبت إلى الإسكندرية، وتمامًا كالأطفال أبدت تذمرها إلا أنها استجابت في النهاية، وعادت مها إلى الطريق الصحراوي مرة أخرى في نفس اليوم،

وفي المساء كان الوالد يرقد مودعًا الحياة بين يدي المرأتين اللتين عشقهما طيلة عمره.

وحين عادت في الصباح بصحبة الجثمان ووالدتها المنهارة، وبعد عجزها عن الوصول لزوجها طيلة طريق العودة، أنهت إجراءات الدفن وعادت إلى المنزل، ليكتفي زوجها بمشادة عنيفة حول تأخرها في العودة للمنزل دون أن يستمع لسبب هذا التأخير لتصرخ في النهاية:

- أبويا ماااااااااااات.

ليهز الزوج كتفيه ويقول:

- البقية في حياتك، يعني زعلانه قوي على أساس إنه كان عايش.

■■■

استعدت مها لمغادرة المنزل عقب غداء الصغير، ولكن رنين هاتفها أوقفها، عرفت أن الطرف الثاني في المكالمة هو «علاء» صاحب التعليق الثاني على الموقع الاجتماعي «فيس بوك».

تبادلا التحية، وسألها علاء عما تقصده بمساعدة نديم، أخبرته بالوضع كاملًا، وتساءلت عن سر عدم سؤاله عن صديقه الذي اختفى منذ عدة أيام، أخبرها علاء أن كل أصدقاء نديم قد اعتادوا اختفاءه لأيام طويلة، قبل أن يخبرها ضاحكًا، رغم انزعاجه مما روته له، أن طقس الاختفاء يصاحبه عادة

غزوة نسائية جديدة في شقة مصر الجديدة، أزعج مها للغاية ما قاله علاء، ولكنها اتفقت معه على اللقاء في منزل نديم بعد ساعة من المكالمة.

لم تتمكن طيلة الطريق من إيقاف دموعها، تلك الدموع التي كانت طيلة عمرها بخيلة، لا تجدها عندما تطلبها، صدمها أن يكون الرجل الذي رأت فيه الحلم الذي لم يتحقق طيلة عمرها مجرد «دون جوان» ، زئر نساء، يجيد فن الكلام المنمق والجميل.

أحزنها أن تكون مجرد «غزوة» من غزواته، ينتهي بها الحال في شقة مصر الجديدة التي تحاول هي الآن إنقاذه بها.

مسحت دموعها عندما اقتربت من المنزل، وقررت أن تساعده حتى النهاية ثم تنصرف

■■■

لا يتوقف نديم عن المشي بين أرجاء المنزل، يفرك يديه ويطلق كل فترة زفيرًا طويلًا، يتذكر ما قاله الطبيب، يفتح عينيه على أقصى اتساع لهما ويصرخ فيهما مطالبًا بالرؤية، يدهشه أنه يرى بصيصًا من ضياء، يبدد قليلًا من العتمة التي اعتادها منذ فترة.

يوقظه من أفكاره صوت رنين جرس الباب، يفتحه منتظرًا مها ليفاجئه صوت رجالي وشخص يحتضنه بقوة.

- نديم ، خير.. مالك؟

يشعر نديم ببعض الحنين إلى الصوت، وبدفء خاص في الحضن، لكنه يتخلص منه سائلًا:

- حضرتك مين؟

يبتسم علاء ضاحكًا:

- حضرتي ...لا.. فعلا عيان، أنا علاء صاحبك ياعم.

يرتمي نديم في أحضان علاء وهو يعتذر:

- آسف ، حقُّك عليا يا صاحبي.

يشرح علاء لنديم سبب عدم محاولته الاتصال به الفترة الماضية معتذرًا، لكن نديم يقاطعه ليخبره أن هاتفه المحمول ليس معه، ولم يكن سيجده إن اتصل، فيكمل علاء مؤكدًا أنه وكُلَّ أصدقائه قد ظنوا أن هناك امرأة جديدة تستلزم اختفاءه في مصر الجديدة.

ضرب نديم جبهته بكفه وقال:

- بس فهمت، علشان كده الشقة فيها شاي وسكر وقهوة وأكل قديم، ومحدش بياخد باله أني بدخل وأخرج علشان الموضوع فيه ستات.

يبدو على علاء عدم الفهم لكنه يسأل:

- طيب واللي حصلَّك ده حصلَّك من إيه؟

- والله ما اعرف ياعلاء.

يقاطعهما صوت جرس الباب، ينهض علاء ليفتحه، فيمسك نديم بيده ويقول:

- اوعى تكون قلت لمها اللي قولتهولي.

- آه قولتلها، بس مكنش قصدي والله.

يضم نديم شفتيه في أسى يجعله عاجزًا عن الابتسام حين سمع صوت مها تلقي بالتحية.

■■■

يحتفل الأصدقاء بمناسبتين في آن واحد، عيد ميلاد «شرف» ورأس السنة الميلادية الجديدة، 2008 ترحل و2009 تخطو خطواتها الأولى، يتحدث الرفاق عن ملخص عام مضى، يبدءون كما اعتادوا في مناقشة السنة على المستوى المهني، كلهم يعملون بالصحافة، يكتشفون أنه لاجديد حملته السنة الماضية، يتنقلون للحديث عن حصادهم العاطفي، حيث يسكن المرح، وترتاد أرواحهم الضحكات.

يبتسم إمام ويقرأ لهم آخر تدويناته عن العشق، وعن صديقته التي ارتبط بها ويحلم بالزواج منها، يبتسم نديم بعد نهاية التدوينة ويهتف:

الله الله إمام العاشقين بجد

يقتبس علاء منها إحدى الجمل ويكتبها سريعًا على صفحته على «فيس بوك».

يصرخ إمام معترضًا على الاقتباس، ولكن علاء يطلب من «شرف» أن يتحدث حسب دوره، فيبتسم إمام ويقول:

- آه انت بتغير الموضوع، بموضوع طويل.

تلمع عيون شرف الخضراء ويبتسم فيشرق وجهه ويقول:

- يكفيني فخرًا أني خضت السنادي مع نديم ماتش اعتزاله.

يردد إمام وعلاء في آن واحد:

- إيه اعتزاله؟

يحمر وجه نديم من الخجل وينظر للأرض بين قدميه، قبل أن يداعب كوبه الموجود على المنضدة القريبة ويقول:

- خلاص بقى كفاية كده عط، بعد الفشل الذريع مع شرف، كان لازم أعتزل، كفاية كده ، دي إشارة وعلامة لازم أحترمها.

يقاطعه شرف:

- بس متقولش فشل.

ينهض إمام من مقعده ويقول بحسم مخاطبًا الاثنين:

- لا إحنا لازم نسمع الحدوتة وبالتفصيل.

يشير نديم لشرف كي يروي الحكاية، بينما يعلو صوت طرقات مصطفى على الباب، ورنين الجرس الذي لا يتوقف أبدًا معلنا عن وصول «الرخم» كما أسموه.

وبمجرد دخوله يبدأ التجهيز لدورة «بلاي استيشن» بعد نهاية حكاية الاعتزال، يتمسك نديم باللعب بـ«برشلونة» ويلعب مباراته الأولى أمام شرف الذي يلعب بـ«ريال مدريد» ويخسر نديم كعادته مع سخرية مصطفى التي لا تتوقف وتشجيع إمام وعلاء.

نوستالجيا

يستقبل الطفل نديم والده العائد من المملكة السعودية في المطار، يرتمي في حضنه شاعرًا بسعادة لا توصف، تعجز سنواته الست عن وصف هذا الشعور بالافتقاد ولكن تصفه حرارة الحضن بدقة أكبر.

وفي المنزل يخرج الوالد هدية نديم من صندوق ملون عليه كتابة بالإنجليزية واليابانية، لم يستوعب الطفل هذا الصندوق الأسود ذا الذراعات الذي أخرجه والده، هتف أمجد حين شاهده:

- بابا إنت جبتلنا «أتاري»؟

ابتسم الأب وقال:

- الأتاري ده مش ليك يا ابو ثانوية عامة، ده لأخوك الصغير.

وأمام شاشة التليفزيون ولأيام طويلة في فترة الظهيرة التي تخلو من البرامج والمسلسلات على القناتين الأولى والثانية جلس نديم يلعب مع أمجد وصديقه أحمد بالأتاري، ماتشات كرة القدم بالخطين الأحمرين، اللذين يواجهان خطين أزرقين، ولعبة التنس التي يتنافس فيها خطان بذات اللونين، يتناوبان ضرب كرة على هيئة مكعب، قبل أن ينتقلا ليتركا أمجد للعب «البيبي فوت» في بير سلم المبنى السكني بصحبة رفاق عمرهم، وإقامة الدورات وتسجيل النتائج، والفوز بالبطولة التي كانت جائزتها زجاجة بيبسي كولا يشربها الفائز وحده.

6

استيقظ نديم من نومه عقب تكرار ذكرى 18 يوليو وسهرته مع والده لمتابعة النجوم على سطح منزلهما الريفي، وروايته الملقاة في القمامة، أزعجه التكرار لعدم تمكنه من الربط بين الحدثين.

استمر في إغلاق عينيه محاولًا التوقف عن التفكير، ليجد نفسه دون وعي يردد أغنية لا يعرفها:

- بحار خايف من المشوار، فى البحروانت بعيد، الموج تملِّي يزيد، ويخبِّي فى الأسرار...... محبوب ومفكش أى عيوب، مهما تغيب ع العين، نورك على الشطين، حبك قدر مكتوب.

يدهشه وجه مها الذي يحتل ذاكرته، فيعيد تأمل وجهها مرة أخرى، يتذكر كلمات علاء عن علاقاته السابقة، لكنه يعرف جيدًا على الرغم من ضياع ذاكرته أن ما يشعر به هذه المرة مختلف، يبتسم للوجه ويقبله، ثم يفتح عينيه ليرى للمرة الأولى سقف الحجرة الوردي.

يعجز تمامًا عن النطق والتفكير، يغمض عينيه خائفًا، ثم تنفتحان رغمًا عن إرادته، يعيد تأمل ما حوله مرة أخرى، يقفز من الفراش، لينظر إلى نفسه في المرآة، يصرخ بصوت عال وهو يقفز من على الأرض من فرط السعادة:

- انا بشووووووووووووووووف.

أعاد نديم إغلاق عينيه وفتحهما أكثر من مرة، خرج جاريًا إلى الشـرفة، نظر إلى الشارع، تأمل الشمس وألقى إليها تحية مبتسمة، عاد إلى الداخل، صرخ بصوت عال:

- المجد للألوان.

■■■

ابتسـم رغمًا عنه عندما رأى صورتهـا معلقة على الحائط، صورة ورقية قديمـة تـرك عليهـا الزمان آثـاره، صبغهـا باللون الأصفـر وغابـت ألوانها اعتراضًـا علـى طغيانه الكريـه، لكن كل هـذا عجز عن منع تلـك الملامح الجميلة لصاحبتها...أدرك الاسم منذ وقعت عيناه على الصورة.

ردده محتفظًا بنفس الابتسامة:

- سعاد حسني..حب المراهقة وما تلاها.

اجتاحتـه ذكريـات عديـدة، أدرك للتـو أنها لم تكـن مجرد ممثلـة فتنته وشـغلت مراهقته بجمالها العبقري، بل صديقة خاصة في صداقة نادرة من نوعها، صداقة من طرف واحد اقتصر دور الطرف الثاني على الفتنة والبهجة وتلك الرسائل التي لم تنقطع يومًا عبر شاشة التليفزيون، عبر أفلامها.

حفظ أفلامها منذ نبت شاربه، تابعها ومارس عادته السرية للمرة الأولى على مشهد من فيلم «خللي بالك من زوزو»، وظل يعجز عن كتم ضحكته

كلمـا رأى المشـهد بعد ذلك، بـدت فاتنة في بدلة الرقـص، عجز عن كبح جماح رغبته الوليدة، فار كالتنور، فبقيت ذكرى لا تنسى، لم يعتبرها رسالة ولـم تكن، فقط كان بداية الارتباط.

أدرك بعدها أن حبه ليس لجسـدها الفائر ودلالهـا العفوي، بل لروحها التي تملأ الشاشة فتفيض على المشاهدين، وعندها بدأت الرسائل التي لم تنقطع أبدًا.

حين كان يجري بحثه الأخير لكتابة روايته عن العسكر، وانشغاله بفكرة كتابـة التاريخ الشـخصي لأحـد كبار القوات المسـلحة ودوره السـري في حرب أفغانستان، وقعت بين يديه نسخة لفيلمها النادر «أفغانستان لماذا؟»، كتب بعدها السيرة دون تردد.

حتى في مراهقته يوم اختلف مع أحد أصدقائه على حب فتاة ما، ومابين غضب الرجولة المصطنع، واستخسار الفتاة في الآخر حتى لو كان صديقه، شـاهد فيلـم «الثلاثة يحبونها» علـى القناة الثانية عقب صـلاة الجمعة ظهر أحد الأيام الشـتوية فـي الثمانينيات، قبل أن يراه بعدهـا بيومين على جهاز فيديو ابن عمه في سهرة عائلية، فترك الفتاة منفذا رغبة سعاد.

وعندما احتار عند التقديم للكلية الحربية، وشـاهد «فيلم للرجال فقط» وأدرك أنه في سـبيل الشـهادة التي يحلم بها عليه أن يتحمل ما لا يطيق من أجل حلمه، وانتهت الحيرة، حتى عندما غضب ولـم يطق الحياة العسكرية، كانـت تأتيه في فيلـم «أميرة حبي أنـا» لتغني «بمبي» فتهبـه الطاقة والبهجة اللازمة لاستكمال الطريق.

تذكـر أيضًـا تلـك المرة التـي كاد يقـدم فيها علـى تنازل مـن أجل ميزة عسـكرية، وعلى الغداء في «ميـس» الضباط وقبل أن يبلـغ قائده بالموافقة كانت حاضرة لفيلم «القاهرة 30».

وحيـن قـرر أن يتـرك الحياة العسـكرية، بحثًا عن نفسـه، كانت حاضرة بفيلم «المشـبوه» شاهده مصادفة ثلاث مرات في أسبوع واحد، وقرر البدء من جديد.

عشرات الرسائل التي لم تتوقف سعاد حسني عن إرسالها له واستقبلها كلها ولـم يخب ظنه.

علق صورتها تلك منذ بلغ الثامنة عشرة، وعجزت غيرة زوجته عن منعه مـن تعليق أخرى في غرفـة نومهما في منزله الجديد الـذي لا يعرف مكانه الآن، لكنه يعرف أنه يحوي صورة سعاد حسني.

غـادر الغرفـة مسـرعًا ليفتـح التليفزيـون، ويـدوس أزرار «الريمـوت كونتـرول» بحثًا عن فيلـم تعرضه إحدى الفضائيات لها، وقبل أن ييئس بعد مرور نصف سـاعة كان على موعد مع فيلـم «الحب في الزنزانة» في نصفه الثاني..لـم تصله الرسالة تلك المرة...لكنه شاهده حتى غلبه النوم :

وخـلال نومه لم يشـاهد في أحلامه غير سـعاد حسـني حاملـة منديلها الأخضر خلف القضبان تشير إلى حبيبها حتى يتعرفها.

■■■

يقضـي نديـم وقتًا أطول في غرفة والديه منذ اسـتيقظ، يتذكر حين رأى مكتـب والـده في الركن تلـك الليلة التي قـرر فيها والـده أن يحفظ جدول الضرب قبل دخول المدرسـة، وكيف قضى عدة ليالٍ يحاول الحفظ، ويوم الامتحان حين كان والده مسـترخيًا علـى الفراش بجوار المكتب، ووالدته جالسـة على ذلك الكرسـي الصغير بجانب الفراش، كان نديم يقوم بترديد الجدول، وفجأة التقطت عيناه نسخة من الجدول موضوعة على المكتب، فقرر أن يقرأ منها حتى لا يخطئ.

تذكـر كيف اكتشـف والـده يومها مـا فعل، وكيـف اقترب منه بسـنواته الأربع وجسده النحيل ليضمه بشدة قائلًا:

– ده غش، اللي انت بتعمله ده يخليك طول عمرك إنسـان مش كويس، حتغش في الدراسـة حتعيش عينيك باصة لتحت دايمًا. مكسـورة، حتغش في الشـغل حتعيـش ايديك مشـلولة ودماغك مـش بتاعتـك، حتبقى مش نديم، مش انت بتحب نديم.

لـم يفهم أغلب كلمـات والده يومها، لكنه أدرك أنـه أغضبه، وأدرك أن مـا فعله لم يكن شـيئًا جيـدًا، توقف تمامًا عن الغش، حتـى كبر قليلًا وفهم معاني الكلمات.

ابتسـم نديـم لتلـك الذكـرى، وخـرج ليجلـس فـي إحـدى الغـرف المهجورة.

■■■

نوستالجيا

أجرى نديم اتصالًا هاتفيًا بمها يطالبها بالحضور، أكدت مها أن وراءها عملًا صغيرًا يستغرق بعض الوقت، واتفقا على أن تمر عليه بعد ساعتين.

تحسس نديم قطع أثاث الغرفة بعينيه، رأى ذلك الدولاب الكبير الذي يحتل الحائط الأيمن بأكمله، وهذا السرير العريض ذا الظهر البيضاوي، وتلك المنضدة الخالية التي ذكرته أنها كانت يومًا ما تحمل تلفازًا باللونين الأبيض والأسود.

انتقل خياله إلى تلك الليالي الشتوية التي كانت الدراسة تجبر العائلة على التجمع مساء أمام مسلسل الساعة الثامنة، والأم تحتل مكانها الأثير على الأرض أمام «السبرتاية» تعد لهم أكواب السحلب الساخن.

ابتسم نديم عندما تذكر تحديدًا اسم أحد تلك المسلسلات «عائلة الدوغري»، غادر الغرفة وهو يردد مقولة شهيرة في المسلسل للفنان شفيق نور الدين «عايز جزمة ياحسن».

عاد للجلوس في صالة المنزل بعد أن صنع لنفسه للمرة الأولى كوبًا من القهوة التركية، كما تعود أن يعدها قديمًا، أشعل السيجارة الأخيرة من العلبة التي أعادت إليه ذاكرته التدخينية، جلس يرتشف القهوة متصفحًا مجموعة الأوراق التي وجدتها مها قبل يومين.

جذب انتباهه أثناء القراءة وجود «نوتة» قديمة بجوار التلفاز، وضع الأوراق بجواره على المنضدة بعد أن تأكد أنها كلها تحوي أفكارًا لروايات وقصص قصيرة وما يخص عمله الأدبي، أمسك بالنوتة وفتحها، طالعه في

حرف «أ» في أول الصفحة اسم «أمجد عبدالرحمن جودت» وبجواره رقم الهاتف المنزلي والمحمول.

أسرع نديم متصلًا بأخيه الأكبر.

- آلو ، مين معايا.

رد نديم في حذر:

- أنا نديم يا أمجد.

- نديم ، إنت فين يا ابني، إنت اختفيت ليه من ساعة حادثة المقطم، احنا قلبنا الدنيا عليك وبلغنا البوليس.

- حادثة المقطم، مقطم إيه؟

- حادثة 18 يوليو يا نديم، بتاعتك إنت وولادك ، إنت شارب إيه يا ابني ، إنت فين؟

- أنا في بيت العيلة يا أمجد، تعالالي لو سمحت.

أغلق نديم الهاتف محاولًا نسيان ما سمعه، ابتسم لسخرية القدر، هاهو للمرة الأولى منذ فقد ذاكرته يحلم بالنسيان، طلب مها ليسألها:

- مها هو النهارده يوم كام؟

- النهارده 25 يوليو 2010.

■■■

قادت مها سيارتها على مهل وهي تتصفح عبر هاتفها المحمول كل الرسائل التي بينها وبين نديم، تقرؤها للمرة السادسة، يدهشها أنها ترى الصدق واضحًا بين الحروف، تدعي طيلة عمرها أنها لا تجيد قراءة ما بين الأسطر لكنها هذا المرة لا تقرؤه بل تشعر به.

تصل عند المنزل فتخفي دمعة استقرت على خدها وتغادر سيارتها، تكتفي حين فتح نديم لها الباب بإلقاء التحية دون أن تنظر في وجهه، اعتادت دائمًا عند الغضب ألا تنظر في وجه من أغضبها، ألا تلتقي أعينهما.

ابتسم نديم وهو يراها مرة أخرى، أمسكها من كتفيها لتتوقف، سألته محاولة إخفاء ضيقها.

- في إيه يانديم؟

انحنى في هدوء ليقبل يدها قائلًا:

- دايمًا اللون الأبيض عليكي يجنن.

سقط فك مها السفلى وأعاده إلى مكانه ابتسامة عريضة أعقبها صرخة فرح، قفزت على أثرها في أحضان نديم ناسية كل هواجسها، وهي تصرخ:

- إنت رجعت تشوف؟

احتضنها نديم بقوة وهو يقول:

- الأهم من إني رجعت أشوف، إني بحبك، مالكيش دعوة بكلام علاء، ده ممكن يبقى نظرته لبحثي عن نصف الأسطورة، معاكي كل شيء

مختلف، أنا اكتشفت إني على الرغم من إني فقدت ذاكرتي، إنما لسه فاكر كويس قوي اني بحبك.

ظهـر عـدم الاقتنـاع علـى وجـه مهـا فأدارته بعيـدًا للمـرة الأولـى منذ وصولها.

فبدأ نديم يردد وهو يهز كتفيها:

جبت الدنيا شرقًا وغربًا.

اخترت أنقى حبات المطر وحملتها فى جبتى.

لأنها تشبه طهرك

أزهى ورود الأرض وقطفتها

جميلة فقط مثلك

أرق قطع الحرير وآلاف الفراشات

تشكل مرحك وفرحك

وأجمل الصور

حبيبتى بعدك

عاشق لملم حبيبته من أرجاء الأرض قطعه قطعة

حتى وجدك

وأتيت إليكى في صمت

نوستالجيا

أحاول وضعها بين يديكي

ارتحت أمامك بعد تعب السنين

فلا تخذلي هديتي التي هي جزء مني

ولا تلومي العاشق إن قدم قلبه هدية

فذنوب العاشقين قلوب تحب

وقدري أن أنتظر في صمت

أو أعلن الحرب حتى الموت

من الملك العاشق إلى المدينة المستحيلة

قررت أنا الملك العاشق إعلان الحرب

وجيشت جيوشي

للغزو

مشاتي حروف كلاماتي تحاصر المدينة

خيَّالتي كل مشاعر تستعد للاجتياح

لا أرغب في استسلامك

فإني قادم لسكناكي

وليس احتلالك

وأنا لا أحب المدن المستسلمة

يا كل الدنيا

اشهدي صباحًا يليق بتلك المدينة

اشهدي حربًا ينتصر فيها الطرفان

مدينتي المستحيلة

مع رسالتي التي تأتيكي كل نهار

حاملة خيَّالتي ومشاتي

استعدي

فالحب قادم.

قاطعته مها قائلة:

- دي قصيدتك بتاعة «ملك يبحث عن مدينة».

- اللي كتبتهالك يا مها.

أغمضت عينيها سعيدة، مستكينة في حضن نديم الذي ضمها بشدة ثم أكمل:

- حتصدقيني لو قولتلك إني من ساعة ما شميت ريحة برفانك وأنا المسعفين بيفوقوني، يوم ما جيتيلي أول مرة، كنت عارف إنك حبيبتي ومتأكد رغم إنى معرفش إنتي مين أو اسمك إيه، كانت مسألة وقت بس وحعرفك حتى لو مكنتيش جيتي وكنت حدور عليكي تاني.

- الوقت نسبي ياانديم احنا اللي بنعمله.

ابتســم نديم عندما تذكر مصدر العبارة التي رددها يومًا ولم يكن يعرف مصدرها.

عادت مها برأسها للخلف، لتتأمل عيني نديم ثم قالت:

- أنا بحبك قوي يا نديم.

■■■

جلـس نديم على سـور الحديقـة مبهورًا، وضع هاتفه فـي جيبه، وعيناه تواصلان التحديق في الفراغ بلا انقطاع، لا يشـعر بالناس من حوله، يتذكر جيـدًا أول يـوم تحدثا فيه، كيـف ظل طوال طريق العـودة يتحدث لصديقه عنهـا دون انقطـاع، أبهـره منذ ذلك اليـوم كل هذا الكم مـن العلامات، أن يرتـادا نفـس الأماكـن دون أن يلتقيا من قبـل، أن يحبا نفـس الروايات، أن يتلقى منها ردًّا على سـؤالٍ يخشـى نطقه، لم يكن مقـدرًا أن يلتقيا لأن لكل منهمـا دوائر علاقات شـخصية خاصـة منفصلة تمامًا، ليـس بينهما صديق واحد مشترك لدرجة أنه قال لها يومًا:

- القدر بذل مجهود علشان نتقابل، احنا مش لازم نخذله.

سألته يومها، كيف بإمكان الحب أن يغزو القلوب بتلك السرعة، ابتسم واعتبـر هذا علامة تحقيق الأسـطورة، حيث لا يحتـاج النصفان الحقيقيان وقتًـا للتعشـيق، للحـب، لأنهمـا يـدركان جيدًا منـذ اللحظة الأولـى أنهما واحد، يتجاذبان كما يتجاذب قطبا المغناطيس.

تذكرا كل هذا معًا قبل أن تصرخ مها:

- نديم أنا جعانة.

قال لها نديم وهو يمسك بسماعة هاتفه المنزلي:

- اطلبي أكل واستعدي بكرة عندنا اجتماع هنا ، مهم جدًّا.

■■■

قادته قدماه بعد رحيل مها أثناء شراء بعض المستلزمات المنزلية من محل مجاور للمنزل إلى شارع جانبي، توقف طويلًا أمام ذلك البيت المغلق الذي يستعد العمال لهدمه أمام فرن للعيش البلدي، اقترب بهدوء من شرفة الدور الأول التي لا تعلو إلا بمتر واحد عن سطح الأرض، تحسس السياج الحديدي للشرفة في حنان وارتسمت على وجهه ابتسامة.

تذكر «رشا» تلك الفتاة التي أحبها في المرحلة الإعدادية، صاحبة أول خطاب غرامي خطه بيده، وأول قصيدة حب كتبها في حياته، تذكر وجهها المثلث وشعرها البني الطويل، وعيونها التي قال فيها يومًا «أستطيع الآن أن أصف عيون الملائكة».

تذكر قصتهما القصيرة التي لم تدم غير أسبوع، عندما اكتشف أنها على علاقة بنصف شباب المنطقة، بكى للمرة الأولى على قلبه الجريح وكرامته المهدرة، كتب للمرة الأولى قصائد عن الخيانة والهجر.

تذكر أيضا كيف ظل لمدة عام يعتبر المرور من هذا الشارع الجانبي محرمًا، وأنه كان يرسم ذلك النقش في السياج الحديدي الذي قضى بجواره الساعات يتحدث معها بعد منتصف الليل كرمز للخيانة في كراسات المدرسة.

تذكر أيضًا عندما التقى بها بعد سنين طويلة بصحبة آخر طالت لحيته حتى لامست كرشه، وارتدى زيًّا باكستانيًّا مميزًا للمتشددين دينيًّا ، بعد أن ارتدت الخمار، وكيف ابتسم يومها في وجههما فتجهم الرجل وأغمضت هي.

تذكر أنه كتب على حسابه على موقع «تويتر» يومها ..«العيون التي ظننتها للملائكة صغارًا عيون تجيد الكذب والتخفي»

عاد إلى منزله سعيدًا بالذكرى، ثم خلع ملابسه واتجه إلى المطبخ ناويًا عمل «صينية» بطاطس وفراخ مشوية وأرز معمر، وجبته المفضلة التي كانت أخته الكبرى تستقبله بها خلال عودته من الكلية الحربية كل يوم خميس.

■■■

لم يكن هناك بد من الانفصال، اتفق نديم مع زوجته، على أن تبقى بصحبة الأطفال في منزل الزوجية، على أن يسكن هو في شقة مؤجرة في الدور الأسفل، اتفقا على أن يظلا أمام طفليهما صديقين، طالبته بأن يحترم وجودهم في نفس البناية ويمارس حياته بعيدًا عن هذا المكان.

احترم نديم الاتفاق ولم تمنعه ندى يومًا عن رؤية طفليه وقتما يشاء، حرص كل عام على أن يصطحبهما يوم 18 يوليو إلى خارج القاهرة إما في مصيف، وإما لقضاء يوم خارجها حتى يريهما شكل نجوم السماء كما رآه يوما مع والده، وإن تعذّر السفر لأسباب العمل كان يصطحبهما إلى المقطم.

وفي تلك الليلة يوم 18 يوليو 2010، اصطحب الصغيرين دينا ومحمد إلى المقطم وخلال أحد تلك المنعطفات الصعبة فقد السيطرة على عجلة القيادة، وفقدت السيارة اتزانها وسقطت على منحدرات الهضبة.

تم نقل كل المصابين إلى مستشفى قريب، شخَّص الأطباء حالة محمد على أنها كسر مضاعف في القدم اليمنى مع ارتجاج في المخ، دينا تم احتجازها في غرفة الرعاية المركزة لدخولها في غيبوبة، أما نديم فتم احتجازه للاطمئنان عليه لعدم وجود أي جروح ظاهرية أو كسور في جسده.

تم إبلاغ الزوجة في المنزل، هرعت إلى هناك، جلست بجوار طفليها منهارة، قبل أن تذهب إلى غرفة نديم لتصرخ فيه:

- قتلت ولادك يا نديم، ارتحت كده، قتلت ولادك.

قبل أن تنهار باكية وتصطحبها الممرضات للخارج .

أصابت كلماتها «نديم» في مقتل، عجز مع التشوش الكبير في تفكيره، وإحساسه بآلام مبرحة من أثر الرضوض على التفكير، غامت عيناه بالدموع، فنهض مغادرًا المستشفى دون أن يحدد له وجهة ودون وعي.

وفي منزل الأسرة استلقى على فراشه لمدة 3 أيام في شبه إغماءة، أفاق بعدها فاقدًا الذاكرة والبصر.

■■■

جلس نديم أمام حاسبه المحمول للمرة الأولى منذ استعاد بصره، ابتسم لخلفية الشاشة التي حملت صورته في حفل لتوقيع روايته بصحبة طفليه وبيدهما الرواية، بحث عن ملف الصور وفتحه، وجده مقسما لملفات أخرى، للأهل والأطفال والأصدقاء ومها.

فتح ملف الأهل ليجد مجموعة من الصور لأعياد ميلاده المختلفة، تابع بشغف تلك السعادة على الوجوه، شعر بالدفء الذي تشعه صور العائلة، ابتسامة أمجد أخيه الأكبر التي تشبه تمامًا ابتسامة الوالد، شقاوة إيمان ونظرتها المليئة بحب الحياة وحب أسرتها، طيبة آمال البادية على وجهها دون مجهود يبذل من الناظر، أبناؤهم وأزواجهم الذين ظهروا في الصور الحديثة، تلك القبيلة التي تكونت ومازالت تنمو.

وفي ملف الأصدقاء أدهشه ترتيب الصور مجموعات مختلفة من الأصدقاء لا يربطها رابط سواه، شباب في سن المراهقة، تذكر منهم «عادل» كما اعتاد أن يناديه، بعويناته وابتسامته العريضة، أجهد ذاكرته من أجل أن يتذكر بقية الأسماء لكنه فشل، فقط تابع صورًا لرحلة ما لهم على شاطئ بحر أدرك للوهلة الأولى أنه في مدينة الإسكندرية.

صـور أخـرى لمجموعـة بـدت أصغر منه سـنًّا، فـي أحد بـارات مصر الجديدة، بدا من الصور أن الكل غائب عن الوعي تقريبًا، وضعية الأجساد أكـدت له أن علاقته بهم لم تكن بنفس الحميمية مع مجموعة المراهقة في الصـور الأخرى، انتقل سـريعًا للمجموعـة الثالثة حيث «شـرف» و«إمام» و«عـلاء»، شـاهد معهم آخريـن، تذكر علـى الفور «مصطفـى» و«خيرت» و«سيد» و«سمير» و«مصري».

أدهشـه كم الصور، ولكن سـرعان ما تذكر أن علاء يعمل مصورًا، وأنه مشغول بتوثيق كل لقاءاتهم.

استغرق في مشاهدة مجموعة من الصور في مكان ريفي تذكر بالكاد أنه مسقط رأس إمام، ابتسم لاسم الملف «خرج ولم يعد»، أدرك المسمى من حجم الأكل الموجود أمامهم في الصور وسعادتهم الظاهرة به.

مجموعة من الصور الأخرى على أحد شـواطئ سـيناء، عجز عن تذكر اسم المدينة، لكنه ابتسم كثيرا لصورة جلس فيها مصطفى على «حجره».

همس في ثقة:

- طوفي ابني الكبير.

وقبـل أن يصـل إلى صور «مها» قاطعـه رنين الهاتـف المنزلي الذي لم يحبـه طيلـة عمره، وكان قلبه يشـعر بالانقباض لسـماع صوتـه، تذكر الآن أنه كان دائما مصدرًا للأخبار السيئة، ولكنه أسـرع ليرد على الهاتف ليجد مصطفى الذي حضر على السيرة ليقول:

- انت فين ياعم نديم، دايمًا قارفنا كده.

■■■

في الطريق إلى العنوان الذي وصفه مصطفى كان التاكسي الذي يقل «نديم» مارًّا على شريط مترو مصر الجديدة، بالتحديد محطة «المعلمين»، تعلقت عينا نديم بالمحطة فطالب السائق بالتوقف.

غادر التاكسي بحجة شراء سجائر، وترك عينيه تلتهمان تفاصيل المكان، مقلة اللب على يسار المحطة ومحل بيع شرائط الكاسيت على يمينها وفرشات بائعي الجرائد في الخلف والأمام، وبقي مطعم الفول في ركن ضيق يسار المحطة، بجواره قاعدة حجرية استضافته هو وزملاء صفه الثانوي طيلة أعوام ثلاثة، حرصوا في أغلبها على الهروب من الحصص المملة، والإفطار بساندوتشات هذا المحل، ولعب الكوتشينة على تلك القاعدة في حالة الإفلاس، أما في بدايات الأسابيع، حيث المصروف المتوافر، فكثيرًا ما كانت حفلة العاشرة في السينما هي ملاذهم ومأواهم.

وقبل أن يعود لسائق التاكسي الذي أخذ يضرب «كلاكسًا» متتابعًا، وجد نديم نفسه يغني مبتسمًا:

- إيه الأساتوك ده اللي ماشي يتوك ده.

إيه ورد الجناين ده اللي يصحي النايم ده.

ثم قفز إلى السيارة معتذرًا للسائق، قبل أن يناوله سيجارة بعد أن أشعلها له.

وفـي الطريق وقبل أن يصـل إلى المقهى في العنوان الـذي كتبه، كانت عيون نديم لا تتوقف عن التقاط أي ذكرى من الطريق، وفي نهاية المشـوار وعندما غادر السـيارة أمام أحـد الكافيهات المعروفة فـي حي «الزمالك»، توقـف نديـم قليلًا أمام فاترينـة زجاجية لمحل أحذية، لـم تجذبه الأضواء ولا حتى طريقة العرض، تعلقت عيناه فقط بصندوق كارتوني أبيض، يضع فيه العمال كل الأحذية الجديدة.

■■■

كان يكره المطار منذ الصغر، لم يكن يعني له سوى الفراق، خاصة أثناء عودته من السعودية حيث يعمل الوالد، وبصحبته آمال أخته الكبرى.

كان يسـافر بصحبة والدته ليقضيا شهور الإجازة الصيفية بصحبة الوالد المغترب، وفي حر السعودية ورطوبتها العالية وفي رحمة تكييف غرفتهما الخاصة، كانت آمال تقضي الليالي في تعليم نديم الرسـم والتلوين، وحين ينجح في رسـم شيء مميز، كانت مكافأته ليلة عرض في مسرح للعرائس، صنعتـه أخته الكبرى من صندوق كارتونـي للأحذية، ثقبته من أحد جوانبه ومرَّرت من خلال تلك الثقوب الخيوط التي تحرك بها العرائس المرسومة على ورق ملون ولامع، وبتنويعات مختلفة لطبقات صوتها، وكذلك جعبة حواديتها التي لا تفرغ، كان نديم يتقافز متفاعلًا مع كل عرض مسرحي.

وفـي نهاية العرض وهو بمنتهى السـعادة، كانت آمال تسـجل معه على شـريط كاسـيت لقـاء صحفيًّـا، تحاوره فيـه بسـنواته الخمس عـن رأيه في

المسـرحية وبعض القضايا العامة، وغالبا ما كانا يغنيان في نهاية الشـريط، ليصطحبه معه للقاهرة لتسمعه بقية الأسرة.

تذكـر نديـم كل هـذا على سـلم الكافيـه، تذكر ملامـح آمـال بالكامل، وكذلـك زوجهـا وولدها، شـعر أنـه يفتقدهم جميعـا، لدرجة أنـه فكر في العودة للشارع كي يستقل سيارة أخرى إلى بيتهم في مدينة نصر.

لكن مصطفى كان قد لمحه وأسرع تجاهه ليجذبه من يده مرحبًا ومهللًا كعادته، بينما اكتفى نديم بقراءة ملامح وجهه الطفولية بذلك الشعر القصير المجعـد وزوج العيـون الضيقة خلف منظـاره الطبي، وآثار حب الشـباب الذي خصم من الوجه سـنين أخرى من العمر فشـل أنفه الكبير وفمه الذي لا يتوقف عن الكلام في استعادتهما.

■■■

كان ليوم الخميس دائمًا إحساس خاص عند نديم، حيث تتجمع العائلة في منزل الأسـرة عند الوالـد، يتناولون الغداء معًا ويلتقـي الأطفال ليلعبوا ويملئـون المنـزل حيوية وطاقـة، بالإضافـة إلى ضجيج لا يحتمله سـوى المضطرين المحبين لأبنائهم وأبناء إخوتهم.

انقطعـت هـذه العـادة منذ رحيـل الأب قبل سـنوات، لكن نديـم يعود ليجمعهم ذلك اليوم مرة أخرى، سـيأتي الجميع ليطمئن على الأخ الغائب منذ أسـبوع، رفض نهائيًا أن يخبرهم بأي تفاصيل في الهاتف، فقط اسـتقر عزمه على أن يعرفهم بمها.

أجـرى اتصالًا هاتفيًا في الصباح بعـلاء ليطمئن على حضوره ومعه كل الأصدقاء كما اتفقوا في لقاء الأمس.

غـادر المنـزل بصحبة مهـا ليزور طفليه في المستشـفى بعـد أن أخبرته أختـه الكبـرى آمـال هاتفيًا بـكل التفاصيل، سـألها عن حالتهمـا الصحية، أخبرتـه أنهما بخير، سـجد لله شـاكرًا وبكـى، احتضن مهـا عندما وصلت ورقص معها.

وفي الطريق ظل يراجع معها كل ما يعرفه عن نديم، لدرجة أنها توقفت قبل باب المستشفى حتى ينتهي من مراجعته:

- أنا نديم جودت، الصحفي والروائي..كنت ظابط واستقلت.

- وبابـاك كان عالم فلك، وعندك ولد وبنت محمد ودينا، وأختان وأخ آمال وإيمان وأمجد.

- وعندي أصحاب كتير، وكمان بحبك.

اتسعت ابتسامة مها وهتفت في خجل:

- وأنا كمان بحبك.

- بس إيه ده كل معلوماتي بشر، عارفة ده معناه إيه؟

- معناه إيه يا حبيب؟

- إن الحياة بشـر، والذكريات بشـر، واحنا نفسنا متجمعين حتة من كل حد في حياتنا.

أومأت مها برأسها وهي تجتاز بوابة المستشفى مؤكدة كلام نديم.

وأمـام فـراش الصغيرين اسـتعاد الأب حضوره، اسـتعاد أيضًـا ذاكرته الأبوية حين احتضنهما وبكى، جلس ليقبل كلَّ جزء من جسديهما.

سـأل الطبيب عن حالتهما فأخبره أن محمدًا يمكنه مغادرة المستشـفى متـى أراد، أمـا دينـا فأمامها فترة أخرى لـم يتمكن من تحديدهـا بعد، لكنه طمأنه أن الحالة مستقرة تمامًا.

عاد للغرفة ليواصل البكاء بإحسـاس مختلف هذا المرة بعد أن اسـتراح قلـب الأب وضميـره، أثـار بـكاؤه فضول طفلـه محمد فاقترب مـن والده ليمسح دموعه ويربت على كتفه قائلًا:

- بابا متعيطش، مش إنت مبتحبش اللي بيعيط؟

■■■

أنهـى نديم اسـتعداداته أمـام المرآة، صفف شـعره كما اعتـاد دائمًا، ثم اسـتخدم زجاجـة عطره بكثافة كمـا اعتاد دائمًا ، وألقى نظرة مبتسـمة على صورة سعاد حسني قبل أن يغادر الغرفة ليتأكد من الفاكهة والحلويات التي اشتراها خصيصًا للقاء الخميس الأسري.

ومـع ارتفاع رنين جـرس الباب ووصـول آمال أختـه وزوجها ودوران أكواب الشـاي والقهوة ووصـول الإخوة والأصدقاء تباعًا، ظلت الأسـئلة تتردد حول اختفاء نديم وماذا فعل خلال تلك الفترة التي بحثوا عنه فيها.

تهرب نديم من الإجابة عن أسئلة الجميع، وظلت عيناه معلقتين على الباب في انتظار وصول مها.

أدركت إيمان أن أخاها ينتظر شيئًا ما، فتخلصت من حوار سياسي جانبي جمعها وزوجها وشرف وإمام أصدقاء نديم، واقتربت منه ومالت على أذنه لتقول:

- انت مستني مين ولا إيه يا نود.

ابتسم نديم عندما نادته شقيقته باسم الدلع الذي اعتادت استخدامه منذ الصغر، وأجاب وهو يمسك هاتفه استعدادًا لإجراء اتصال:

- ده سر يا مونمن، اعمليلنا قهوة بقى بدل ما انتي عايشة في دور شارلوك هولمز كده.

ولكن مع ارتفاع الصوت المسجل على الجهة الأخرى

- الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا.

غابت الابتسامة وغزا القلق ملامح وجهه.

لاحظ علاء ما ألـمَّ بصديقه، فقام محدثًا أكبر كمية من الصخب كما اعتاد دائمًا ليصطحبه إلى غرفته.

ترك نديم نفسه لتوجيه علاء وداخل الغرفة أجاب قبل أن يسأله:

- اتأخرت يا علاء ومش عارف، تليفونها مقفول.

- إنت زعلتها في حاجة؟

- بالعكس آخر مرة كنا في المستشفى ومتفقين على كل حاجة.

هز علاء رأسه وربت على كتف نديم وقال:

- طيب أنا ححاول أتصرف.

ثم غادر المنزل مستأذنًا الحضور وواعدًا بالعودة مرة أخرى.

ومع انتصاف الليل اضطر نديم لرواية الأحداث للجميع، والذين كانوا بين حزين ومبهور، دون أن يوضح دور مها أو يذكرها لسبب لا يعلمه هو ذاته.

ومع أحضان الانصراف الحارة، التي شحنها اللقاء طاقة إضافية، حرص الجميع على كلمة خاصة تتسرب أثناء الحضن الأخير، دارت كلها حول الاعتناء بصحته، الاطمئنان على الأولاد، موعد بلقاء جديد.

مع انصراف الجميع جلس نديم ليتأمل الأكواب الفارغة مشعلًا سيجارته الأولى، حسبما تعود ألا يدخن في حضرة إخوته الكبار، ارتفع رنين هاتفه واحتل اسم «إيمان» شاشته:

- مالك يا نديم، أنا مرضيتش ألح قصاد الناس.

ودون أن يفكر بدأ نديم يروي قصة مها لشقيقته بأكملها، حتى أنهاها دون أن تقاطعه.

وبعد فترة صمت صغيرة قالت إيمان:

- إنت متأكد يانديم إن فيه حد اسمه مها وعمل كده، ولا دي زي جنياتك وأصحابك بتوع زمان ورجعوا يونسوك في أزمتك.

■■■

كان الصغير حريصًا على أصدقائه، ما بين أبطال أفلام الكارتون الذي يشاهده أحيانًا مثل «النحلة زينة» و«الليث الأبيض» و«جرندايزر»، أو أبطال حواديت «عمو حسن» التي يذيعها البرنامج العام في السادسة من كل يوم، أو حتى أبطال القصص المصورة والمكتبة الخضراء، وغطيان زجاجات البيبسي التي كان يشكل منها فرقه الرياضية الخاصة.

بل تخيل منزله وكأنه قارة كاملة، تشكل كل غرفة منها دولة، تقوم الحروب فيما بينها وتغزو جيوشها بعضًا، تزرع وتحصد، ودوَّن كلَّ هذا بخطه الطفولي في كراسة عام دراسي مضى.

لم يكن وحده أبدًا، حتى عندما ارتبط بصداقات الجيرة والأهل، ولعب الكرة في الشارع كان حريصًا على أصدقائه الأصليين، الذين لم يغادروه، لدرجة أنه أحيانًا ما كان يستدعيهم من فرط الوحدة داخل غرفته في وحدته العسكرية.

هؤلاء الأصدقاء الذين لم يخذلوه أبدًا، لكن مها لم تكن أبدًا منهم، لقد مرت أربعة أيام دون أن تظهر، أو يجدها، حتى حسابها على «فيسبوك» لم يعد موجودًا.

قطع حبل أفكار نديم رنين الهاتف، وظهور اسم علاء على الشاشة، رد مسرعًا وبلهفة:

- أيوه يا علاء فيه جديد؟

- نديم إنت كويس؟

- مش مهم، قولي فيه جديد؟

- إحنا بقالنا شهرين بندور، وإنت لسه مُصر مش عارف ليه.

- علاء لو فيه جديد قوللى أنا متجننتش أنا كنت فاقد الذاكرة.

- محدش قال عليك اتجننت، جايز كان عرض للمرض.

- والدكتور والبواب، وعينيا وريحتها اللي في راسي وإنت لما قابلتها.

- حبيبي أنا مقابلتهاش، إنت ليه مش عايز تصدقني، انسى يا نديم ولازم تبتدي تركز في شغلك، ومش عارفين مين الدكتور ده، والبواب اللي جابلك الإسعاف لوحده.

- حاضر يا علاء، أنا كمان رايح أجيب دينا من المستشفى.

- بقت زي الفل الحمد لله.

- الحمدلله بقت بتتحرك عادي ربنا ستر.

- طيب هايل يعني إنت أكيد مبسوط.

- الحمدلله.

- طيب علشان ترتاح وتركز بقى، لازم تبقى عارف إن مها نبيل سافرت مع فيلمها مهرجان سينما في بلجيكا بدأ يوم 15 يوليو وقعدت هناك أكتر من تلات أسابيع وبعدها طلعت على لندن ولسه مرجعتش مصر لحد دلوقتي من هناك، يعني مكنتش موجودة في القاهرة خالص وانت تعبان.

■■■

بمجرد انتهاء التليفزيون من عرض إحدى حلقات مسلسل «هو وهي» الـذي يقوم ببطولته أحمد زكي وسعاد حسني معًا، ومع تتر النهاية الذي تغنيه المجموعة:

- تمت بحمد الله، تمت بعون الله، تمت حكاية الليلة ويليها حكاية جديدة تكمل بإذن الله.

طالب محمد والده بـ«حدوتة» جديدة قبل النوم...

أشار نديم إلى الفراش، فأسرعت دينا هي الأخرى لاحتلال مكان فيه لسماع الحدوتة.

ابتسم نديم قبل أن يغلق التليفزيون، ويقطع ورقة النتيجة التي أشارت إلى العاشر من ديسمبر 2010، ويطفئ النور بعد أن أضاء محمد الأباجورة الصغيرة بجوار الفراش، الذي جلس على حافته وبدأ حكايته:

- كان ياما كان في سالف العصر والأوان، ضفدع صغير لونه أصفر ومنقط باللون الأحمر، مع إن كل الضفادع حواليه لونها أخضر، وكان ضفدوع الأحمر ياحرام كل ما يحب يلعب مع الضفادع جيرانه، يقعدوا يضحكوا عليه.

واحد يقول: ههههه شايفين لونه.

واحد تاني يقول: ده أحمر لون الورد ده مش ضفدع زينا.

وكلهم يضحكوا وميردوش يلعبوا معاه.

كان يـروح لشـلة تانيـة من الضفــادع قاعديـن يلعبـوا استغمايـة، أول مـا يشــوفـوه يوقفوا اللعب وهاتك يا ضحك، ويغنوا له : ياحمـرا يا بلحة يا مقمعة شرفتي إخواتك الأربعة.

يمشـي ضفـدوع الأحمـر بعيد ويـروح يقعد على شـط البحيـرة يعيط، يمسـك طوبة ويحدفها بإيده جوه الميه، البحيرة تعمل دواير مكشرة، يزعل أكتر ويمشي يدور على بحيرة تانية.

يقول لنفسه وهو ماشي : حتى البحيرة اللي مش بتضحك عليا ، بتكشر لما تشوفني، أنا ماليش أصحاب خالص.

■■■

وفـي البحيـرة التانية يقابل ضفدوع الأحمر ضفـادع خضرا تانية بتلعب «تيك على العالي وتيك على الواطي»، أول ما أقولهم ممكن ألعب معاكم، خافـوا في الأول وجريوا، قالـوا إيه الكائن الغريـب ده، وبعدين واحد قال بصوت عالي : الحقوا ده ضفدع لونه أحمر.

كلهم قعدوا يضحكوا لحد ما ضفدوع مشـي وراح على شـط البحيرة الجديدة، حدف طوبة تانية، الدواير عملت تكشيرة كبيييرة، قام ضفدوع طلع يجري بعيد.

■■■

وصـل ضفـدوع عند بحيـرة جديـدة، وقف يبـص عليها وهـو بيحاول يمســح دموعه، عدت جنبه ضفدوعة جميلة بس لونها أحمر وعلى ضهرها نقط صفرا، مكنش مصدق نفسه، نداها بصوت عالي:

- يا ضفدعة.

وقفت وبصتله وابتسمت وقالتله:

- أهلا وسهلًا أنا اسمي صفورة إنت اسمك إيه؟

قالها:

- اسمي أحمر، ممكن نلعب سوا.

شـدته مـن إيده بسـرعة وقالتله تعالـى الأول نعوم في البحيـرة وبعدين نطلع نلعب نط الحبل.

ونطوا جوه الميه اللي المرادي عملت دواير كتير كتير بس كانت بتبتسم.

ضحك ضفدوع وقالها:

- ميرسي يا بحيرة إنك ضحكتيلي.

قالتله البحيرة:

- أنا ضحكتلك علشـان إنت نطيت في حضني، أمـا البحيرتين التانيين فزعلوا منك علشان حدفتهم بالطوب.

ومـن يوميها وضفدوع الأحمـر مش بيرمي حد بالطـوب وكبر وعايش على شط البحيرة اللي بقى كل ضفادعها لونهم بين الأحمر والأصفر.

وتوتة توتة خلصت الحدوتة.

تمـت

القاهرة في 23 مارس 2013

نبذة عن المؤلف

أسامة الشاذلي

- كاتب صحفي في جريدة «المصري اليوم» وروائي مصري، من مواليد 12 ديسمبر 1973، تخرج فى الكلية الحربية المصرية عام 94 ضابطًا بسلاح المدرعات، ثم ترك الخدمة في القوات المسلحة عام 2005 .
- ليصدر أول مجموعاته القصصية تحت اسم «نديم العدم».
  ويتبعها 2006 بمجموعة «جمهورية الغابة العربية».
  ورواية « سيد الأحلام» 2009.
  وصدر له في عام 2010 رواية «قهوة الحرية».
  ثم رواية «كفر العبيط» عام 2013.
- اشترك عام 2008 في تأسيس إذاعة أون لاين (تيت راديو) وله الكثير من التسجيلات المعبرة عن الحال السياسي والاجتماعي في ذاك الوقت.
- وعمل عام 2009 :2011 مديرًا لتحرير موقع السينما. كوم elCinema.com، وله العديد من المقالات في مجال النقد الفني.
- كما قام بإعداد ورئاسة تحرير أكثر من برنامج سياسي للفضائيات منها، «من أنتم» في قناة القاهرة والناس، «نصف الحقيقة» في CBC.
- وقدم العديد من البرامج الإذاعية الساخرة على إذاعة «ميجا» إف إم.
- وكتب للعديد من الصحف والمواقع الإلكترونية مثل: «البديل» «المصري اليوم»، «حقوق».

أحــــدث إصــــدارات

الأســـتـــاذ

أسامـة الشاذلي

■ نـــوســـتـــالـجـيـــا ..


دار نهضة مصر
للنشر

نوستالجيا

NOSTALGIA

يستيقظ نديم عبدالرحمن جودت، ذلك الشاب الثلاثيني يومًا ما ليجد نفسه وحيدًا فاقدًا للبصر والذاكرة، لا يعرف حتى اسمه، أو أين هو... ولكن يضطر لتلبية احتياجاته الطبيعية كإنسان ومن خلال حواسه الأربعة الباقية، يبدأ في التعرف على نفسه رويدًا رويدًا.... فيتذكر اسمه عند سماع صوت اشتعال سخان الغاز في حمام المنزل وتتجسد في ذهنه صورة والدته عندما كانت تناديه صغيرًا كي يخرج من الحمام ليلحق بالمدرسة.... وحين يشم رائحة زجاجة عطر كسرها لعدم قدرته على رؤيتها، يتذكر أنه كان له زوجة انفصل عنها... وهكذا يواصل نديم اكتشاف حياته بالتدريج، عبر الحنين لكل ما مضى وبخاصة في مرحلة الطفولة والصبا... يستعيد علاقته بأصدقائه بصحبة حبيبته «المُتخيلة» فيسترد بصره، ويبدأ بتذكر كل ما يخص الجميع حوله ويخص ذاته... وعبر حاسة البصر، يكتشف نفسه من جديد.

وهكذا تقدم لنا رواية "نوستالجيا" لأسامة الشاذلي إسقاطًا
الذي يسكننا جميعًا لكل ما عشناه في الماضي ونتغافل عنه في
أن التركيز فيه يمنحنا الفرصة لاكتشاف ذواتنا وحقيقة ما





6 221133 346375